إحدى ليالي الشتاء

الخـــــوف الغضـــــب الحـــــب

رواية

فارس عصفور

أتت من العدم، وظلت تردد:

"الخوف، الغضب، الحب".

قبل أن ترحل كما أتت، أو كما ظن هو.

الفهرس

الصفحة	التفصيل
4	أهداء
6	الفصل الأول (محمود)
25	الفصل الثاني (الخوف)
36	الفصل الثالث (الغضب)
42	الفصل الرابع (الحب)
62	الفصل الأخير (سارة)

إهداء

إهداء إلى البسمة التي لم تغب يوما عن مخيلتي إهداء إلى "محمود الصاوي" رحمه الله، الصديق الذي كان كل شيء وسيكون دائما ...

"من لا يملك الحب، يخشى الشتاء".

محمود درويش

الفصل الأول

محمود

"برد الشتاء في هذه المدينة لا يعمل

إلا على إيقاظ الجروح القديمة".

واسيني الأعرج

- 1 -

جلس في غرفته على حافة سريره، واضعًا يديه على وجهه، تترقرق عيناه بلمعة يرفضها هو شخصيًا، تزداد ضربات قلبه كلما تذكر ما حدث منذ قليل، الغرفة حوله تليق جدًا بمسمى غرفة شاب في الرابعة والعشرين من عمره، جهاز لاب توب يعتلي مكتب أمامه، يقبع كرسي متحرك سقطت عنه قطعة الظهر، بجواره سرير غير مرتب منذ مدة تجاوزت حاجز الزمن، في مقابله دولاب أخرجت أحشائه عنوة ولم تعد، كل شيء اعتيادي ما عدا ذلك الهاتف المحطم المتناثرة أشلائه في محيط الغرفة، منها أجزاء صغيرة جدًا تدل على قوة تلك الرمية الغاضبة.

ظل على هذه الحال لمدة غير قصيرة، ولكن سرعان ما مل من اليأس، مل من الظهور في شخصية العاجز، شهق صدره عاليًا ليكتم تلك القطرات التي تقف أعلى جفنيه ويمنعها من التساقط كتلك القطرات التي بخارج النافذة، وكأنه رأى بها شعوره الحالي وهي تنهمر بشدة وغضب.

نهض ململمًا تلك اللحظات الفائتة، اتجه إلى اللاب توب وأمسك بالمايك، ضغط على الفأرة مؤشرًا على اسم علي فريد، حرك يمينًا قليلًا ضاغطًا على خاصية الاتصال، ثم رنين، رنين.

"ألو"، الجهة الأخرى من المكالمة حيث صديقه علي.

"إيه يا بني، معلش لسه مخلص المكالمة"، قال بصوت خافت.

"لا ولا يهمك، هتعمل إيه دلوقتي؟"

"أنا مخنوق شوية، تعالى ننزل".

"ننزل فين؟ أنت مش سامع صوت الشتا ولا إيه؟ بلاش النهارده "، قال علي.

" انا كنت عارف أنك هتكسل، افتكر أنت بتعمل معايا إيه؟"، قال بصوت يرغب في التوسل قليلًا.

"والله يا ابني مش بايـ..."

رد علي ولكن لم تكتمل الجملة، فقد كان ذلك مؤشر على انقطاع الإنترنت وظهور علامة "x" في الشريط أسفل الشاشة.

"دا وقته!"، قال بضيق شديد.

ثم التفت حوله وكأنه يبحث عن هاتفه ليتصل بشركه الإنترنت، ليتذكر بعدها أنه قد حطمه منذ قليل، وحتى إذا كان سليمًا فلن تلبي الشركة طلبه في نفس التوقيت، فقد اعتادوا منه على دفع الاشتراك في هيئة عملات فضية مناصرًا لذلك الاحتجاج على شركات الإنترنت.

لثوان قليلة لم يعرف كيف سيتخطى تلك اللحظة، أو بصورة أخرى ما حدث في الفترة الفائتة ككل، هل سيظل كما هو؟ سيستسلم ككل المرات الفائتة أم أن هناك صوت بداخله ربما سئم من كل ذلك، وقبل ان ينغمس في التفكير ويترك العنان لوحدته حتى تؤرقه مرة أخري، كان لا بد من ان يرفض كل ما حدث، مع ادراكة صعوبة ذلك الامر، ولكن ليهون على نفسه بعض الشيء، كان هناك حل مميز بالنسبة له! الخروج وتنفس بضع اللمسات من الهواء الطلق الذي يتراقص بالخارج، فنظر إلى الساعة التي في يده فوجد أنها تشير إلى الثامنة، عاد ليفرد ذراعيه ويتثاءب قليلًا، الأمر الذي دفع ببعض الأدرينالين أن يدب داخله، فالتقط معطفه وارتداه مسرعًا، والتقط مفاتيح سيارته وارتدى حذاءً رياضيًا ذا كعب عالٍ قليلًا ليكون الخيار الأمثل للسير تحت المطر.

خرج من المنزل واستقل المصعد وضغط على الزر (p) حيث الجراج، وأسرع إلى سيارته وخرج إلى طريق الكورنيش مسرعًا قليلًا مستغلًا بعض الفراغ الذي أصاب الشارع، يسير مباشرًا بجوار تلك الأمواج المتلاطمة، في قوتها تجد أنها تركت البحر وعلت علوًا مخيفًا قليلًا، ولكنه مثير للبعض، ثم تعود لتهبط فتغطي الشارع من جديد.

فعلى كل حال هذه هي أمسية الشتاء في الإسكندرية، على حال مختلف من جميع المدن الأخرى في مصر يكون الشتاء في الإسكندرية في قمة الروعة أو تحديدًا لأهل تلك المدينة.

فإذا سرت تحت المطر لا يشغلك ما إذا ابتلت ملابسك أم لا، لا يشغلك ستمرض أم لا، مستنشقًا تلك الأنفاس الباردة نافخًا بعض موجات الهواء الساخن وكأنك ترسم على الزجاج، ضامًا يديك إلى بعضهما بعد أن ارتدت كلٌ منهما قفاز عار الأصابع، ناظرًا إلى تلك الأمواج التي قد تهرب واحدة منها وتغطيك كاملًا، بجوارك بعض السيارات المسرعة على الطريق، ملامسة إطاراتها لقطرات المطر الساكنة أرضًا تعطي انطباع أنك تسمع صوت مقلاة الزيت، تنظر إلى القمر، إلى البحر الهائج، إلى بعيد، فتغادر ذلك العالم بأكمله، وعلى تلك الحالة يكون شعور الإسكندرية وأهلها.

ظل محمود مسرعًا بالسيارة لبعض الوقت إلى أن وصل إلى مكان يعرفه جيدًا بكامل تفاصيله، أوقف السيارة على جانب الطريق وظل بها قليلًا قبل أن ينزل منها ناظرًا خلفه خوفًا من قدوم سيارة عابثة، أغلق الباب

وتمشى إلى الرصيف، حتي توقف امام حاجز الكورنيش مباشرة، وقف في جمود وذهب بعينيه بعيدًا كما يفعل دائمًا ليراقب تلك السفن المنيرة في داخل الماء، القابعة وسط الظلام الدامس، وعل الرغم من ذلك ما زالت محتفظة بشيء ليس موجود حولها، فقد كان ذلك هو حاله تمامًا، يرى نفسه دائمًا يحتفظ بشيء داخله لم يعد موجودًا في الآخرين من حوله.

دارت بداخله العديد من الخواطر تذكر الأحداث التي تتابعت في السنوات الماضية وحتى يومه هذا، وكأن لسان حاله "هل أنتظرت حتى أتي إلي هنا لأفكر فيما مضي؟ وان كان هذا حلًا مطروحًا فلماذا عزفت عن القدوم إلى هنا طول تلك الفترة؟"، تضاربت بداخله المشاعر، وتذكر خوفه الدائم من المستقبل القادم لا محال، ولعنه الدائم للظروف المحيطة به، والمشكلات التي وجدها أينما ذهب، وغيرها من الأمور، إلى أن شعر بتكالب كل تلك الأمور ضده فلم يستطع تمالك نفسه وانهمر في البكاء متكئًا بيديه على أحد المقاعد التي تمتد بطول الكورنيش، تاركًا العنان لنفسه في الإتيان بما عصف بها، ملاحظًا عدم وجود أي شخص لمسافة بعيدة، فخرجت الآهات واحدة تلو الأخرى، تعلو مرة وتئن مرة، وتعود لتنخفض بعد ذلك، ويعود ليردد بعض الكلمات:

"يا رب، يا رب، بقى كل حاجة، كل حاجة مابتكملش، يا رب أنت بإيدك كل حاجة".

كان الصوت حزينًا جدًا، وكان الألم عميقًا، عاد قليلًا ليتمالك نفسه ويجمع آخر ما بقي من كبريائه كرجل، مسح ذلك البحر الهادر عبر خديه، شهق بصوتٍ عالٍ، أطلق خلاله رصاصات ضِيقهُ وعاد من جديد لينظر إلى تلك السفن البعيدة، ولكن لم تكن الرؤية بعينه التي تترقرق بالدموع واضحة هذه المرة، ولكنه ظل ناظرًا إلى بعيد، وتصلبت عيناه تجاه الضوء الذي لم يخفت ولو قليلًا، لفترة ليست بقصيرة إلى أن نسي الوقت، ونسي المطر الذى هدأ قليلًا ونسي وكل شيء، ولم يشغلة كم مر من الوقت، ولكنه كان يشعر أن هواء البحر هو الخلاص الوحيد، فأغلق عينيه وراح يسمع فقط صوت الموج –هل جربت ذلك من قبل، ستشعر أنك في زمن آخر– يخاطب نفسه للمرة الأخيرة قبل أن يقرر أن يفتح عينيه على أمل العودة إلى السيارة والرجوع من حيث أتى، ولكن فتح عينيه وتجمد كل شيء حوله في لحظه، شعر للحظات أن الموج قد توقف وانقطع الماء من السماء تمامًا، اختفت جميع الأضواء التي رآها، وعلى الرغم من وجود تلك الأشياء بالفعل أو حدوثها إلا أنه لم يعد يشعر بها أو وجد ما يشغله عنها بالفعل، لقد قرر ترك كل تلك الأشياء، وقرر أن ينسى لفترة ليست بقليلة ما يمر به، ناظر فقط باستغراب ودهشة إلى تلك العينين اللتين تقبعان على مسافة ليست ببعيدة.

- 2 -

منذ 3 ساعات:

دق جرس الباب لتجري فرح مسرعة لتفتح الباب منادية بصوتٍ عالٍ:

"محمود جه يا ماما".

وتقفز عاليًا ليلتقطها محمود ويدور بها في الهواء ويردد:

"أهلًا، أهلًا، أهلًا"، بنغمة موسيقية أحبتها فرح بالتعود.

محمود ذلك الشاب صاحب الأيام العصيبة، ذو أربعة وعشرين عامًا، في سنته الرابعة لكليه الحقوق، أسمر البشرة، أسود العينين، في مجمل ملامحه وسيم، ولكن لم تكن طباعه كملامحه على الرغم من تلازمهما لفترة، ولكن افترقا بعد وفاة والده، أصبحت طباعه حادة.

"جبت لي معاك إيه؟"، قالت فرح.

"الدنيا بتشتي والدكاكين قافلة"، أجاب محمود.

"أوعى نزلني"، لتترك يديه، فيفلتها في الأرض وتكمل:

"أنا زعلانة منك".

في اللحظة التي جاءت فيها الأم وبدون أي مقدمات:

"فرح، ادخلي جوا"، بصوتٍ غاضب، أدركت الصغيرة بعده أنه حان وقت الانصراف، لتتبدد ملامح الوجه المبتسم لمحمود وكأنه أدرك أن الوقت قد حان لما أسماه:

"أسطوانة كل يوم".

....

الهاتف الخاص بمحمود يرن بعد تردد كبير يجيب:

"ألو"، قال بصوت هادئ.

"أيون، مش عايز ترد عليا ليه كل دا؟"، ردت زينب بنبرة تدل على العتاب.

زينب صديقة محمود المقربة، طالبة بالفرقه الرابعة أيضًا بكلية الحقوق، على رغم من أنه يكبرها بعامٍ واحد

"معلش كنت بكلم ماما"، رد محمود بصوتٍ خاضع.

"طب حتى كنت كنسل"، قالت زينب، واستمرت تلك النبرة التي كان لها واقع سيء داخل محمود دفعه للانفجار.

"لو بتكلم مع ماما مش كفاية، أنا كنت بزعق معاها".

نبرة الكلام كانت هجومية للغاية، حملت مدى الضيق الذي بداخله، ولكن ربما لم تكن زينب السبب، ولكن كانت كلماتها القشة التي قصمت ظهر تلك اللحظة، حدث ما حدث، وساد الصمت آنذاك.

....

"علي"، يتحدث محمود عبر الفيس لصديقه علي.

"إيه يا صاحبي، عامل إيه؟"، رد علي.

"تمام".

"بتلك مع مين؟ تليفونك ويتنج".

"كنت بكلم زينب"، قال محمود.

"ماشي، إيه صوتك مضايق، لسه في مشاكل؟"، سأل علي.

"مش عارف"، بدا وكأنه يحاول إيجاد حل لإحدى مسائل الفيزياء.

"مش عارف بجد، ببقى نفسي في كلامنا تحصل كل حاجة وعكسها، أزعق وافرح واغني واعيط، حاجة كدا زي الورد، عشان تشم ريحته الحلوة لازم تتأذي بشوكه".

"إيه يا ابني، أنت كدا في حالة خطر خلي بالك، إيه الكلام العميق دا"، قال علي مازحًا محاولًا إخراج صديقه من هذه الحال.

"وبعدين أنت عارف، كلهم كدا"، أكمل علي.

"حتى لو كلهم كدا، بس زينب غير أي واحدة... المفروض".

"ماشي"، قال علي بشيء من عدم الاقتناع.

فجأة رن هاتف محمود مرة أخرى وظهرت على شاشته نفس الحروف مرة أخرى، تردد كثيرًا في الرد، فكر في إكمال حديثه مع علي، ولكن سهل عليه صديقه تلك الحيرة.

"شكل تليفونك بيرن، عمومًا لو هي كلمها، وبالراحة كدا، كلمني لما تخلص".

"ماشي، هكلمك"، قال محمود وهو يخلع عنه الميك ويلتقط الهاتف مجددًا.

الحياة بالنسبة لمحمود دائمًا ما كانت تحمل العديد والعديد من المفاجآت والاضطرابات، والقدر أيضًا دائمًا كان يخبئ مصيرًا عكس ما كان يتوقعه هو، ولكن في الصناديق والأوراق المخبئة كافة والأفكار التي توقعها أو لم يتوقعها، لم تكن اللحظة الحالية في الحسبان.

دائمًا كان يأتي إلى هنا، ولكن لم يعتد أن يتواجد أحد من المارة لمسافات بعيدة، بل زاد على ذلك أن هناك من يجلس ناظرًا له مباشرةً مراقبًا لكل ما تعود أن يكون سرًا بينه وبين البحر فقط، دموعه، آهاته، حزنه الداكن، بل زاد على ذلك كله أن صاحب تلك العينين فتاة.

للحظات كان قد نسي لما أتى أو أين هو، وعجز عقله عن التفكير، هل؟ لماذا؟ كيف؟ أو ماذا؟ من صاحبة تلك العينين؟ وماذا تفعل في ساعة كهذه وطقس كهذا في هذا المكان؟ ولماذا هي وحيدة؟ وهل هي فعلًا وحيدة؟ أم عائلة تسلل أحد أفرادها ليراقب محمود؟ ولكن لم يعتد أن يكون أحد هنا، دائمًا ما كان يشكو ويحكي وحيدًا، أما الآن فهناك فتاه تجلس في جانب مظلم من الكورنيش، جانب أقرب إلى البحر تاركةً تلك المقاعد، متواجدة على أحد القوالب الصخرية التي يرتطم بها الموج مباشرةً، تجلس في مواجهة البحر وكأنها شابهته في أمر مراقبة تلك المراكب البعيدة، واختلفت عنه في شيء واحد، فهو لم يتخط أبدًا حاجز الكورنيش ورصيفه، كان أحد مخاوفه الكبرى أن يقترب من تلك الصخور المتجهة إلى الماء، كان يشعر أن هناك "جنية" -كما يقال في لغة أهل الإسكندرية- ستخرج من البحر وتبتلعه، أو أنها ستصحبه معها إلى العالم السفلي حيث يعيش لنهاية الدهر، على كل حال لم يتخط تلك النقطة حيث يقف أبدًا، أما هي فيبدو أنها أشجع منه أو أنها بالفعل إحدى تلك الجنيات.

وسط ذلك الكم الهائل من الأسئلة الذي يدور في عقله، ووسط عدم تصديق منه، لم يعرف كيف سيتصرف، هل ينصرف ويكون "الجبن" سيد الأخلاق أم يغلب طابع الشهامة ويسألها إذا كانت تعرضت لمشكلة أو إذا كانت تحتاج للمساعدة، ولكن ظل ساكنًا لم ينحز لأي من الخيارين، ولم ترمش عيناه للحظة خوفًا من أن تختفي حينها، فربما كان القمر قد غاب عن السماء، ولكن هناك كوكبين براقين ينظران مباشرةً إليه، يعكسان ما تسلل من ضوء من أعمدة الأضاءة المنيرة، عينان كانتا كفيلتين بأن تغنياك عن ذلك البحر، ذلك الموج، تلك الأمطار، يغار منها الشتاء، بل يتحديان بعضهما الآخر في شغل الناس وخطف قلوبهم، أما بالنسبة إليه، فقد غلبت عيناها الشتاء، وأعلنت كلٌ من دهشته وحيرته اسم الفائز.

وبدون أي مقدمات تحركت تلك الفتاة فجأة، حيث استدارت حتى أصبحت مواجهة للطريق، أنزلت قدميها إلى الأرض، غادرت الصخور، اعتدلت، وبدأت في المشي متجهة إلى الضوء أكثر فأكثر، متجهة إلى إشعال نيران حيرته أكثر فأكثر، فامتزجت خطوات قدميها بدقات قلبه، أصبح لهما إيقاع واحد متناغم، كنوتة موسيقية استقام كل عازفيها خطوة وراء خطوة، مع تحركها إلى الضوء كانت تلك الجنية القادمة من الظلام تتضح شيئًا فشيئًا، أخذت تخطو، وأخذ الضوء يتسلقها شيئًا فشيئًا، فعاد من جديد يسأل، هل يبقى أم يسرع في الرحيل؟ أم ماذا؟ ولكن شعر أن الأوان قد فات، خطوات ثابتة تتجه نحوه، تفاصيل تتضح أكثر فأكثر.

خطت قدميها إلى الضوء، الجينز الأسود الداكن، ثم خطوة أخرى فتظهر سترة جلدية سوداء، أسفلها قميص أبيض ذي رسمة مميزة جدًا خطفت أنظار محمود فظل ناظرًا لها يحاول فهم مغزاها، فقد كانت لوجه حزين، العين اليمنى به عبارة عن علامة "X"، حيث تخيل أنها تشير إلى عين تعتصر ألمًا، والأخرى أقرب إلى علامة السالب، وكأنها أجبرت أن تغلق، والفم على شكل القوس المتجهة للأسفل تقطعه بعض الخطوط وكأنه خيط بخيط، كل هذه الملامح القاسية كانت في دائرة مستوية، تشبه الإيموجي، كما يظهر في الرسائل، –هل رأى بها نفسه؟–.

كان قد أوشك على الغرق في ذلك الكم من التفاصيل الذي يدور حوله في تلك اللحظة، ولكن سرعان ما عاد ليتذكر أن الخطوات تتوالى بلا توقف، مما يعنى أن هناك تفاصيل جديدة بدأت في الظهور، سلسلة طويلة تتدلى حول رقبتها تحمل ثلاثة أحرف متشابكة طوليًا "S O S"، حسب ما لديه من معلومات إنها تعني "النجدة" بالإنجليزية، تتجه خطوة أخرى نحوه، بدا أنه هو نفسه من يحتاج للنجدة.

خطوة أخرى، العينان تحدقان به مباشرةً، والوجهة بدأت ملامحه في الخروج إلى النور، وبدأ كامل المظهر المميز جدًا الذي عليه تلك الفتاة في الكشف عن أسراره، وبعد خطوتين أو ثلاث خطوات أخرى توقفت، أصبحت مباشرةً في مقابل محمود، لا يفرق بينهم سوى ذلك الحاجز من مقاعد الكورنيش، بات الآن يستطيع الكشف عن ملامح تلك الفتاة بالكامل، ملامح مزجت بالجمال الحي، دائمًا ما تجده يتمثل في إحدى مقطوعات بت هوفين الإيطالي، روبيرتو فيروتزي كان قد جسده وعرضه في لوحة "الأم الصغيرة"[1]، العينان بندقيتان تحملان عالم بأكمله داخلهما، خدان يميلان للحمرة، وفم تعلوه ابتسامة خفيفة يكاد يقارن بإحدى ثمار التوت البري، التي يود زارعها أن يظل منتظرًا ثلاثة مواسم حتى يأتي ربيعها، وشعر أسود كالليل مموج يتطاير مع الهواء، توقفت في اللحظة التي شعر بها محمود أنه تم منح الإذن للطبيعة لكي تعود لمباشرة عملها من هدير البحر وقطرات الشتاء ونسيم الرياح، كل تلك المظاهر التي سجنت الكثيرين في بيوتهم وأفزعت آخرين بحثًا

[1] الأم الصغيرة أو مادونينا الشوارع: لوحة للفنان الإيطالي روبيرتو فيروتزي، 1897، تُعتبر هذه اللوحة من بين أشهر اللوحات في العالم، ومن أكثرها استنساخًا ورواجًا.

عن الدفء، قد لانت وانحنت لتلك الفتاة الواقفة في الناحية الأخرى، أما هو فقد أرتبك بشدة ولم يعرف ماذا يقول؟ أو كيف يبدأ؟ يراقب يديها وهي ترتفع لتزيح تلك الخصلة -أو أكثر- المتدلية عن صفحة السماء تلك، ود محمود لو يعرف فقط اسم صاحبة ذلك الوجه، أو لماذا هي هنا؟ لكن كونها أشجع منه قليلًا أو أقل ضغطًا أو كما يقال بأن الفتيات هم من يحملن رهان البدء، كانت هي السباقة لكسر حاجز تلك اللحظة، التي شعر محمود أنها مثيلة عمره بأكمله، حتى ولو كانت مجرد ثوانٍ معدودة، فبدأت هي وتحركت تلك الشفتين بما كان بداية الخلاص بالنسبة لمحمود، وفجأة:

"آسفة، مش متعودة أزعج حد، بس... أنت كويس؟"

وقتها عاد كل شيء في الدوران مرة أخرى.

"أنت كويس؟"، قالت سارة.

سارة أسامة سعد، مع ذلك المظهر المميز وتلك الملامح الشابة، فإنك تستطيع أن تحدد أنها أقرب عمرًا إلى مطلع العقد الثالث من عمرها، أو ربما أكبر بسنتين، فتاة لأم وأب، ولديها أخت أصغر منها.

"في مشكلة؟"، سألت سارة.

مرت لحظات قليلة من الصمت، مع إفتراض وجود جواب من الطرف الآخر، إلا أن محمود ظل جامدًا لثوانٍ، ثم دارت التساؤلات مجددًا في رأسه، "كويس؟"، "مشكلة؟"، كلمات ربما كانت كفيلة أن تعود به إلى أرض الواقع، ليتذكر ما به، ويتذكر حزنه، وما مر به منذ عدة ساعات أو ربما منذ عدة أعوام، تذكر دموعه التي ما زالت آثارها محفورة عبر خديه، ولربما صعق من السؤال خوفًا على كبريائه، وليس لكل تلك الأمور، فتلك الفتاة التي تقف أمامه مباشرةً وتسأله، قد لاحظت دموعه أو راقبتها جيدًا، سمعت بوحها وشكوى كل واحدة منها، -ربما- ورغم أنها غريبة إلا أنه تخوف أن يكون كبريائه قد تحطم.

شعر بضرورة الإتيان برد، ربما إن طالت المدة تحكم أنه قد يكون أبكم، ولكن كيف وهي سمعت توسله؟ هل أصم؟ ربما يجب أن يشير بأي إشارة، ولكي يحاول أن يهون عن نفسه بعض الشيء، أمال رأسه قليلًا إلى الأسفل ناظرًا يمينًا ويسارًا، وكأنه يهرب من شيء، ثم عاد واستنشق بعض الهواء ليطرد تلك اللحظة الأخيرة من البكاء وذلك الصوت الفاضح الذي يدل على احتباس بضع قطرات الماء في مدخل القصبة، وأتى بالرد بعد بضع ثوان:

"مفيش"، قال محمود بصوت مائل إلى المنهزم، الذي تكالبت عليه الحياة وطعنته بقسوة.

عاد مجددًا بنفس الكلمة، ولكن هذه المرة مع ابتسامة صفراء مغصوبة، حاول بها تلطيف الأجواء بعدما ظهرت ملامح التعجب على وجه سارة، رفع كتفيه للأعلى قليلًا مرة أخرى، قائلًا:

"مفيش".

تلك الكلمة التي قد تكتم انفجار يعادل انفجار قنبلة نووية، كالتي ألقت على هيروشيما، أو تخمد ثورة بركان بقوة بركان كراكاتوا[2]، وما يزيد عن ذلك لو رد الطرف الآخر: **"طيب"** أو **"ماشي"**، وما قد يزيد عن ذلك لو كان الحوار بينك وبين أنثى، وكان ردك بأي من تلك الكلمتين، فإذا تبقى في عمرك لحظات للهرب فحاول أن تهرب وتلوذ بما بقي من أيامك في الحياة. وعلى الرغم من شعور سارة بقسوة الرد، وكأنه يخبرها بأنه لا يتحدث مع الغرباء، ولكن ربما استطاعت التعرف على حقيقة ذلك الشعور، فحاولت مجددًا المساعدة وعادت بِردًا بدا ذكيًا جدًا:

"مهما كان اللي مزعلك فالسفينة البعيدة اللي هناك لازم تفضل منورة".

أحس من خلال كلماتها أنه يرى نفسه خلال المرآة، متمعنًا في عينيها وفى كل التفاصيل التي حولها.

"حاولت، بس الريح في أوقات كتير بيغلب الربان"، رد محمود.

"حتى لو كانت الشمس هتطلع تاني يوم؟"، قالت سارة حيث صاحبت تلك الكلمات ابتسامة قد تعطيك انطباع بالثقة.

للحظات شعر كأنه يعرفها منذ قديم الأزل، يفهمان كلام بعضهما بدون توضيحات كثيرة وكأنهما تحدثا مسبقًا، شكا لها، وساندته ثم عاد بقليل من الاستغراب ليسأل متعمدًا عدم الإجابة عن سؤالها، وكأنه يحاول الهرب والاختباء قليلًا:

"كنتي قاعدة هناك!! كان في مشكلة؟"

ذلك السؤال الذي أعاد الاثنين إلى أرض الواقع، خرج بهما من البحر إلى اليابسة مبتعدين عن تلك السفن.

"كنت بشكي للبحر شوية، وهمشي على طول، مفيش مشكلة"، قالت سارة.

حاول أن يسألها عن تأخر الوقت، ولكن شعر بالخوف قليلًا حتى لا يكون متطفلًا.

"وأنت؟"، عادت سارة لتسأل.

في البداية وجد صعوبة في الرد على الرغم من أنه كان قد شرع في الانصراف، لولا أنه رآها عاد بصوت هو الأبعد عن البكاء منذ بدآ حديثهما.

---

[2] انفجار بركان كراكاتوا: من أهم الانفجارات وأعنفها في عصرنا الجديد، سجل بتاريخ 26 أغسطس 1883، وصل ارتفاع ثورته لقرابة 2600 قدم نتيجة لتكدس التراكمات البركانية على مدى السنين، حتى إن صوت الانفجارات تلك سمعت على مسافة 5000 كم من مكان حدوثها.

"كنت لسه همشي بردو".

شعر إن تلك الكلمات قد تكون الأخيرة في حديثهما الذي امتد طويلًا على الرغم من قصره، وهو الآن على استعداد لكي يلقي تحية الوداع، ولكن هذه ليست النهاية التي يمكن أن تحظى بها مع فتاة مثل سارة، فتاة تبحث كل تفصيلة حولها لكي تفاجئك.

"إذا كان كدا يبقى بصرة، ممكن نمشي لغاية لما نلاقي عربية؟"

استمع إلى كلماتها بحيرة شديدة، هل يوافق أم يرفض؟ قد تكون تلك اللحظة هي الأقرب إلى شعور الخطر بداخله خوفًا من التعرض للسرقة أو الاحتيال، ولكن سرعان ما أعاد النظر إلى تلك اللؤلؤتين البريئتين اللتَينِ لا يستطيع أي من الرجال الصمود أمامهن أبدًا.

"أنا معايا عربية، ممكن أوصلك لو مش هيزعجك"، قال بصوت حذر.

"امممم، لو أمكن لأقرب مكان ألاقي فيه عربية"، ردت سارة.

"تمام".

اتجه محمود إلى السيارة فاتحًا الباب الآخر لسارة، مستغربًا من ردة فعله قليلًا وتصرفه النبيل الذي لم يعتد على تكراره، ركب السيارة وبدأ في تدوير المحرك ولكن بلا فائدة، مرة أخرى وأخرى ولكن لا مفر.

"في مشكلة في العربية، كدا هيبقى بصرة بجد"، قال محمود.

اِعتلى وجه سارة إبتسامة بسيطة لتهون عنه ولا تشعره بالضيق، وبلطف شديد ردت:

"يبقى نمشي".

نزلا من السيارة، أغلقها محمود جيدًا وبدآ السير على الرصيف، الخطوات التي تتوالى كانت تنشئ معها تساؤلات عديدة داخل نفس محمود، وكأن الكم السابق هناك لم يكن كافيًا، شعر للحظات بضرورة التمتع بأسلوب لطيف حتى لا تشعر تلك الفتاه بالريبة أو القلق.

"كنتي بتراقبي المراكب البعيدة ولا إيه؟"، سأل.

"متعودة على كدا، بكلم البحر وبفضل أتفرج على المراكب والسفن اللي بتعدي، جميلة قوي"، ردت.

"أنا كمان"، صمت قليلًا وأومأت برأسها قبل أن يكمل:

"براقب المراكب وبشكي للبحر كتير قوي".

"ياه الظاهر عايز تشكيله على حاجات كتير عشان تنزل في وقت زي دا!".

لمعت عينا محمود وكأنه تذكر ما يمر به بعد أن نساه لوقت ولو قليل، ثم عاد ليتمالك نفسه.

"المشاكل زادت شوية وفى حاجات كتير غلط".

"حاولت تحلها".

"لا مش قصدي، حصلت حاجات كتير، كل حاجة في الحياة مش ماشية كويس".

ردت سارة بلهجة قريبة من المعاتبة:

"هو تعريفك إيه لحل المشكلات؟ كل حاجة مش ماشية كويس وبتحاول ترتبها وتفكر فيها يبقى أنت أكيد بتحلها صح؟"

على الرغم من استغرابه الشديد من لهجتها الواثقة وكأنها اطلعت على أسرار الكون، عاد بلطف:

"أكيد، معاكي حق".

"يبقى مفروض تدور على حل"، قالت بصوت امتلأ بالحماس.

ولكن على الجانب الآخر كان الصمت هو الرد الوحيد، حاولت أن تهون عليه وكأن ذلك ما اعتادت عليه في مساعدة غيرها، نظرت إلى عينيه وكأنها ترى حياة قد انطفأت، وقد تكون قد رأت بحر مشابه لذلك البحر المظلم الذي يقبع بجوارهما داخلهما.

"ممكن أساعدك، بحب اسمع الناس، صحابي مسميني الفيلسوفة".

"هدوشك معايا"، قال محمود.

عادت سارة بقليل من الاحتيال:

"عمومًا لو مش متعود تحكي لحد غريب، براحتك".

"براحتك"، تلك الكلمة التي قد تدفعك لتغير العديد من مخططاتك، على وجه خاص قد تدفع بالمرأة إلى الجنون أو الغضب أو القتل مع سبق الإصرار، وكان هذا هو حال محمود على الرغم من كون الخجل هو الدافع الأكبر وراء تخوفه، ولكن بدأ بسرد قصة طويلة قد تعود إلى سنوات.

كانت الخطوات قد مشت بهما بعيدًا عن المكان الذي كانا فيه، خطوة وراء خطوة وبدأ محمود بالسرد، ترقرقت عيناه وراح يستعيد الإحساس الذي سيطر عليه طوال الفترة الماضية، شعر مجددًا بذلك الضيق مجددًا أخذ يتمدد داخل حنجرته وراح يحكي:

"بابا متوفي من تلت سنين، عديت بفترة صعبة ساعتها، خليتني أتجه لكل حاجة غلط، فضلت على كدا كتير، حتى ماما ماقدرتش تخرجني من اللي أنا فيه لغاية لما قابلت زينب".

صمت قليلًا، أخذ بعدها شهيق عميق وارتفع صدره، كما لو أنه سيخرج مبتعدًا، ثم عاد ليكمل:

"زميلة ليا أصغر مني بسنة، دخلت حياتي على غفلة مني".

عاد ليبتسم قليلًا وهو ينظر إلى سارة ثم يعاود النظر إلى البحر:

"بس كانت غفلة حلوة"، قال محمود وصمت قليلًا قبل أن يكمل:

"قدرت تبعدني عن أي حاجة وحشة، قدرت ترجعني زي الأول وأحسن كمان، وثقت فيا في الوقت اللي الكل شافني فيه غلط".

"كل دا كويس"، قالت سارة.

"كويس، بس اللي بعد كدا ماكنش كويس، في الوقت دا بدأت أفقد الثقة في ماما".

نظرت سارة بتعجب شديد، ولكن قاطعت كلمات محمود تلك الملامح فتبددت تمامًا:

"طبيعي بعد كل دا ما ابقاش قادر أثق فيها، فلو افترضنا إن مريم ماكانتش دخلت حياتي، أو بمعنى تاني ماكنتش قابلتها، كنت هفضل تايه كتير؟"

صمت قليلًا كما لو أنه يعاتب نفسه على قسوة كلامه عن أمه، ولكن شعوره بالضعف الشديد كان الدافع وراء ذلك، حتى دموعه استغلت ذلك الضعف وتأرجحت عبر خده لتكسر كبريائه أمام سارة كما يعتقد هو.

"كمل"، قالت سارة بصوت هادئ.

تساءلت هل سيكمل أم لا؟ ولكن عاد ليكمل سريعًا:

"فضلت الأيام تمشي وأنا شايل جميل كبير لزينب، لغاية لما بدأت أحس إن الموضوع كله مجرد شفقة وعطف، كل حاجة كانت بتحاول تساعدني فيها، حتى لو حاجات أنا أقدر أعملها بنفسي، كنت بحس إني مسكين في نظرها".

توقف قليلًا، في الوقت الذي علا وجه سارة بعض الاستغراب، وعاد ليكمل:

"اتخنقت وبدأت مشاكل كثيرة تظهر بينا، وكمان مشاكل في الكلية وفي كل خطوة وكل حاجة حواليا".

عادت تلك النبرة المصاحبة للبكاء دون خشية أو توجس من وجود فتاة ولكن لتعبر عما داخله فقط، لا تأبه ولا تمل.

"مكنتش أعرف أن فراق بابا لينا هيعمل كل ده؟، ووسط كل اللي بيحصل، محدش حاسس بأني خسرت السند اللي كان ليا في حياتي، اللي من بعده كل حاجه باظت، حسيت أني لوحدي من بعده، نفسي كل اللي حواليا يبقوا عارفين حاجه زي دي، نفسي حتي أقولهم إن بابا واحشني".

كانت تلك الكلمات انفجارية بشكل أكثر قسوة من اللحظات القليلة الماضية قبل أن يقابل سارة، وعاد لينهمر في البكاء متجهًا ليتكئ على تلك الحواجز الإسمنتية مجددًا.

"عشان كدة زي ما قولتلك، كل حاجة بقت ماشية بالمشقلب، مفيش أي حاجه حلوة بتحصل، وكل اللي أنا طالبه بس أن الحرب اللي جوايا دي تخلص".

وسط كل تلك الضوضاء وقفت سارة على مسافة ليست ببعيدة، لا تعرف أتلوم نفسها أو أنها فعلت ما توجب عليها وأخرجت قليلًا مما كان بداخله، ثم عادت وشعرت بضرورة التدخل، فتحركت بخطوات مترددة ناحية محمود إلى أن وقفت بجواره مباشرةً، ثم نظرت إليه وكأنها تذكرت شيئًا، وبدون أي مقدمات وبصوت هادئ قليلًا:

"هات إيدك"، قالت سارة.

في أغلب الأحيان يكون الكلام أو الحديث من مُرسِل إلى مستقبِل، أما بالنسبة لتلك الكلمات تشعر كما أنها من مُرسِل إلى عدم، شعر محمود كما لو كانت تلك الكلمات لشخص آخر غيره، أو شعر أن تلك الكلمة مجرد هاجس ولم تتحرك شفتا سارة مطلقًا.

"محمود، هات إيدك، ثق فيا"، رددت سارة مجددًا.

رفع رأسه قليلا ناظرًا لها، ثم استقام في وقفته بعيدًا عن حاجز الكورنيش، فكر قليلًا فيما قالت سارة، أحقًا قصدت تلك الكلمة –إنه لا يعرفها حتى– لو لم تكرر سارة حديثها لشعر لبضع لحظات أنه هاجس بالفعل، حاول أن يسألها ذلك السؤال من خلال عينيه: **"أحقًا؟"**، ابتسمت سارة ابتسامة هادئة مُحركة رأسها قليلًا للأمام أي: **"نعم"**. للحظات تشعر أن هناك سؤالًا يلح عليك بشدة، لماذا وُجدا الكلام؟، فربما العين تستطيع الحديث، فكل ما دار كان من خلال عينيهما، عيناه سألت وعيناها تجيب وتحكي، حتى شعر محمود من خلالهما بضرورة الإنصات، بضرورة تنفيذ ما طُلب، فمد يده مترددًا قليلًا ولو أنه شعر أن طوق النجاة قد تشكل من خلال يد سارة فكيف يرفض؟ تشجع قليلًا ومد يده اليمنى لها.

"إيدك التانية"، قالت سارة.

أعطت الكلمة بعضًا من الاستغراب لمحمود، وقبل أن يعود ويستغرق في التفكير مجددًا قاطع ذلك كله بضرورة الإنصات لطلبها مجددًا وعاد ليمد هذه المرة يده اليسرى، أمسكت سارة بيده من خلال يدها اليمنى بسطتها على كف يدها وعادت لتغلق عليها بيدها اليسرى، ثم نظرت له مباشرةً وشرعت في إغلاق عينيها، راقب محمود حركاتها في تمعن شديد ولم يعلم ما جدوى ذلك كله، ولكنه شعر أنه عاد ليستمع لدقات قلبه من جديد بعد أن فقدها لمدة طويلة جدًا، وبعد ثوانٍ ليست قليلة أفاقت سارة من ذلك الثبات، ولكن كما لو أنها أفاقت علي فاجعة، ففتحت عينيها ثم نظرت لمحمود وعادت لترفع يدها اليسرى لتغلق بها يد محمود مُشَكلةً قبضة لتفلتها بعد ذلك.

تسمر محمود للحظات ينظر ليده، يشعر بما اعتراها من شعور وكأنه لم يلمس يد إنسان آخر من قبل، ضم يده إلى جانبه ورفع عينيه لينظر لسارة مجددًا، التي كانت تنظر بتمعن شديد له، ولو أنها تستعد لتخبره بكلمة الخلاص.

"ياااه! كل دا غضب جواك؟!"

نظر محمود مجددًا إلى يده التي كان قد ضمها إلى جانبه ويكرر كلماتها داخل رأسه، فهل يده تفضح ذلك فعلًا؟ ثم عاد لينظر إلى سارة مجددًا التي كانت قد بادرت بالحديث مجددًا:

"الإيد الشمال أقرب للقلب، الإحساس بيوصل أسرع ساعتها".

نظر لها في تعجب شديد:

"اتعلمتي دا فين؟"، قال محمود.

ردت سارة مجددًا ولكنها لم تجب على السؤال كما لو أنها لم تسمعه:

"عمومًا في مكان لازم نروحه".

"فين؟"، رد محمود بثقل رهيب وكأنه يتحرك لينطق بالكلمة الأولى في حياته.

"هتعرف"، ردت سارة وهي تمد يدها لتمسك بيد محمود مجددًا، ولكن هذه المرة كانت اليمنى.

"تعرف تجري؟"

"أجـ..."، حرفان فقط كان قد نطق بهما محمود قبل أن يجُذب بشدة لينطلقا في ذلك السباق تحت المطر الخفيف وقتها، لا تتكرر مثل تلك اللحظات، تمسك بيد شخص، تجريان سريعًا على جانب الكورنيش وتتراقص معكما تلك القطرات الرقيقة الهابطة من السماء، كحال محمود وسارة وهما يجريان نحو مكان تعرفه سارة مسبقًا.

"رايحين فين؟"، قال محمود بصوت أقرب للعلو حتى يتغلب على ذلك الهواء المرتطم بهما نتيجة سرعة الجري.

"تعالى بس"، قالت سارة.

"طب ما نمشي زي ما احنا!"

"المكان بعيد شوية ومش هنوصل، اجري شوية بس".

"إنتي بتجري بسرعة قوي!"، ردد وهو يلهث.

"يلا بس، ماتخفش أنا اللي لازم أخاف مش أنت".

كان لوقع تلك الكلمات أثر صادم عند محمود، وشعر للحظات بما يسمى: **"تم قصف الجبهة"**، فعاود النظر ليد سارة المُمسكة بيده، ثم عاد ليسرع في خطواته حتى استطاع أن يكون بمحاذاة سارة لأول مرة مما جعلها تنظر له وتبتسم، ليعودا وينظران إلى الأمام ويستمران في الجري وهما يتفاديان أعمدة الإنارة والعوائق التي في الطريق، ظلا مسرعين إلى أن اقتربا من مدخل شط ما لتُفلت سارة يد محمود وتتوقف.

"وصلنا"، قالت سارة.

الذي بدوره عاد ليلتفت حوله وهو لا يرى إلا ذاك المدخل المظلم.

الفصل الثاني

الخوف

"لكن ما الذي يمكنني أنْ أفعلهُ لو ظلّ ذلك الخوف ينبِض في جسدي بدلا مِن القلب".

فرانز كافكا

- 1 -

توقف محمود مباشرةً لحظة إفلات سارة ليده كما لو أن يدها هي مصدر الطاقة له، بعد عدة خطوات توقفت سارة هي الأخرى، التفت إلى محمود وهي تشهق بشدة:

"يلا".

"يلا فين؟"

"هننزل".

"فين؟!"

"الشط هنا، اخلع كوتشيك وأنت نازل".

تعجب محمود بشدة وأخذ ينظر إلى تلك الفتاة التي قد شرعت في الجلوس لتخلع حذائها، خلعت كلتا الفردتين وأمسكت بكل واحدة منه في يد، عادت لتكرر على محمود ما قالت مجددًا بعد أن ظل واقفًا بلا حراك.

"اخلع –لا مؤاخذة– اللي في رجلك وأنت نازل".

كانت النبرة هذه المرة جادة قليلًا، جعلت محمود يتحرك ولو في تردد شديد، جلس أسفل ذلك الدرج حيث كانت تجلس سارة، نزع رباط الفردة الأولى من حذائه ثم عاد لينظر إلى سارة التي كانت قد تقدمت بضع خطوات داخل الشط لتشير له بيدها أن يسرع.

خلع محمود حذائه وجوربه وبدأ في نزول آخر درجات السُلم قبل أن يلامس الرمال، الشعور ببرودة الرمال كان رائعًا، ولكن شعور آخر كان يتزايد مع كل خطوة، إنه شعور الخوف بالفعل، فلم يتخط حاجز الكورنيش خوفًا، فكيف سيقترب الآن من الماء، وسط كل تلك الاضطرابات، رفع رأسه باحثًا عن سارة لعلها تهون عليه قليلًا كعادتها، في الوهلة الأولى شعر أنها خطت قليلًا للأمام، ولكن بدأ في الاضطراب عندما تلفت باحثًا عنها في كل مكان ولم يجدها، فبدأت ضربات قلبه في الازدياد، وبدأ في التنفس بطريقة أسرع وكأنه سمح لخوفه وقتها أن يتملكه بعد أن رفضهُ منذ قليل اعتقادًا منه أن سارة بجواره.

كذلك يكون الخوف دومًا أمر نسبي، لا نرتجف إلا بدافع من داخلنا، لا نطمئن وقت النوم حتى نضيء الأنوار في الغرفة المجاورة، أو يظل أحدهم يقاظًا بجوارنا، نحن من نسمح لأنفسنا بالخوف.

وهذا بالفعل ما حدث مع محمود، فقد تملك الخوف منه وبدأ في التلفت كثيرًا، داخله رغبتان إما الفرار أو أن تقتل الشهامة القليل من الخوف ويعود للبحث عن سارة التي قد تكون في مشكلة ما، ولكن كان الخوف أقوى فعاد مسرعًا إلى الدرج الذي بالمدخل، ولعله رأى عدم وجود مانع ولو بقليل من الشهامة فانقسم بين نفسه بقدم داخل الرمال وأخرى تلامس آخر درجات السلم، وعاد ليدقق في ذلك الظلام بحثًا عنها حتى عاد ذلك الخيال في الظهور مرة أخرى، ووجد محمود من يشير له من بعيد، وبدأت هي الأخرى في العودة إلى المدخل.

"في إيه؟ فكرتك ورايا على طول".

تردد محمود كثيرًا قبل أن يبدأ بالرد، فأي كلمة ستخرج منه ستكشف عن أكبر مخاوفه.

"عمري ما قربت من الشط بالليل".

"طب ما أنت كنت واقف هناك عادي".

سألت في بقليل من الاحتيال وكأنها تعرف الإجابة مسبقًا.

"بس عمري ما عديت، بخاف!"، قال محمود.

كان تلك الكلمات تخرج منه وسط نزاع كامل بداخله على الرغم من أنه اعتمد في الأيام الأخيرة عدم الاعتراف بأي نقطة ضعف تخصه أمام أي شخص أيًا كان، ولكن خسر الرهان أمام ضعفه هذه المرة، ولكن ربما كان الشخص الآخر غير المعتاد، شخص يسمع ويدرك ما تقول ويمد لك يد العون، شخص لم يتعود أن يستخدم اعترافاتك ضدك، وعلى هذا النحو رأت سارة ضرورة كسر هذه الحالة السلبية.

"أنا بردو في أوقات كتير كنت بخاف! وفي حاجات كتير بخاف منها"، قالت سارة، ثم هزت كتفيها قليلًا وأكملت:

"بس مش لما يكون حد معاك الخوف بيقل شوية؟"

"يعني؟"، رد محمود.

"خلاص تعالى".

قالت سارة وهي تشير برأسها أي تقدم للأمام، انتظرت محمود حتى خطا أول خطواته إلى أن تقدم قليلًا عنها وسارا نحو الشاطئ.

الطقس عامةً كان رائع، كعادة الساعات السابقة على الأقل بالنسبة لمحمود وسارة، ولكن ما يزيد عن ذلك كله أن تقترب من الشاطئ وموج البحر، وما أعطي للأمر المزيد من الأثارة، أن كل ذلك كان ليلًا، قد تكون تلك إحدى اللحظات الممتعة في حياتك مع التعود.

توقف محمود بعيدًا عن المياه قليلًا، أما سارة فتوقفت على محاذاته في البداية ثم عادت لتشهق وتزفر كمية مناسبة من الهواء وتتقدم مرة أخرى لتخطو بقدمها ملامسة للمياه، وكأنها تشبهت بسمكة تمنت لو تعود إلى الماء، أخذت تخطو الخطوة وراء الأخرى يمينًا ويسارًا، تأرجح وتراقص قدميها مع الموج الذي أخذ يصعد ويهبط –هل تتخيل كم الأصوات الذي صاحب المشهد؟ كأنها أوركسترا تدب بحياة كاملة– أما عن محمود فكانت هناك عدة خواطر تراوضه، عن الحياة التي قُتلت، والأخرى التي تدور حوله حينما التقى بتلك الفتاة، حياة حملت قدر كبير من التشويق والمفاجأة وعديد من التساؤلات، تجمدت قدماه بعيدًا عن المياه، يلاحظ بتعجب لهو ومرح تلك الصبية التي أمامه، فلاحظت سارة ذلك الجمود، فعادت بلطف ومرح شديد.

"هتفضل تتفرج؟ إيه خايف هدومك تتبل؟"

نظر محمود إلى قدميه ملاحظًا أنه ما زال بعيد عن المياه، ملاحظًا أيضًا عدم طيه لقدمي "البنطلون" كما فعلت سارة، فأسرع للسير على خطاها وتقدم نحو المياه تاركًا خوفه قليلًا وراء ظهره، معتمدًا على وجود شخص بجواره يطمئنه قليلًا، على الرغم من تعمده عدم الظهور بالشكل الضعيف أمام سارة مجددًا فاقترب إلى أن وقف بجوار سارة مباشرًا، ينظر نحو المراكب مجددًا وكأنه يقول لنفسه إنها أجمل بكثير مما تبدو من المكان القديم حيث كان دائمًا يقف، وتعود داخله الرغبة الشديدة في السؤال فيود لو يسأل سارة: "ماذا نفعل هنا؟"، ويعود ليصمت فقط، ويظل ذلك الصراع ولكن بداخل عقله فقط.

"ها، قلت لي خايف من إيه بقي؟"، فاجأته سارة.

فكر سريعًا ورد بلطف وتلقائية:

"أسمع إن في جنيات بتطلع من البحر بالليل، فممكن واحدة تقتلك مثلًا أو تحبسك فتخليكي تتجني".

نظرت سارة إلى الأمام حيث الأضواء، وعادت بكلمات لها إيقاع مثير تشعر بمدى عمقها بالنفس:

"لو على الجنان، فمفيش جنان أكتر من اللي إحنا فيه، ولو على الموت فأحنا لسه ما اتولدناش أصلًا".

نظر محمود لسارة متفاجئًا من وقع الكلمات، فعادت ونظرت مباشرة إليه وقالت:

"يبقى ليه نخاف؟!"

سمع محمود كل حرف في تلك الكلمات كما لو أنه يوم وشهر وسنة من ذكرياته العالقة مؤخرًا، رأى كل ما به من خلال تلك الجملة، وشعر بأن كل تلك المشاكل المحيطة غير حقيقة، مجرد أوهام، كما لو أنه أسقط عن كاهله عبء الحياة بالكامل بعد أن تخيل إنه يحملها وحيدًا.

نظر إلى سارة مجددًا، ثم إلى الضوء، وعاد ليخطو إلى الأمام أكثر وأكثر، ثلاث أو أربع خطوات ربما، قرر تحرير عقله من كل لحظات الخوف السابقة، شعر أنه قد نال فرصة الانتقام، ولكن من تقف بجواره مباشرة يبدو أنها استطاعت التغلب على الخوف مسبقًا، بدون مقدمات عادت لتخطو عدة خطوات أخرى تقدمت بها على محمود مجددًا، وكأنها تريد إرسال رسالة له: "لن تهزمني أنا أشجع منك"، ثم عادت وانحرفت يسارًا قليلًا وكأنها تقصد خطوات معروفة، أو ربما تقصد جهة اعتادت التوجه إليها، فتطلع محمود إليها وإلى أين كونها ذاهبة ولكن في صمت تام.

للحظات أراد أن يناديها، ولكن تذكر سريعًا أنه لا يعرف اسمها أو لم تأت فرصة ليسألها عنه! الأمر الذي دفعه للتعجب والاستغراب، هل هناك شخص يستطيع شغلك لدرجة عدم سؤاله عن اسمه؟ ولكن عاد وكأنه يتحدث إلى مجهول:

"بقولِك، رايحة فين؟"

وسط كل تلك الحيرة، استطاعت سارة في ذلك الوقت الوصول إلى صخرة عالية قليلًا عن المياه، على الرغم من أنها محاطة بالمياه من كل جانب، تسلقتها بخفة شديدة وراحت تنظر إلى محمود الذي بالكاد تراه ويراها.

"اسمي سارة"، بصوتٍ عالٍ قليلًا.

لم يسألها مطلقًا عن اسمها، ولم يردد السؤال في تلك اللحظات، ولكن كما لو أنها عرفت ما يدور برأسه.

تقدم محمود إلى الصخرة، هو أيضًا صعد طبقاتها المنخفضة والمرتفعة إلى أن جلس بجوار سارة مجددًا، وكأنه يستعد لكي يسألها عن الكثير!!

"على فكرة أنا ماقولتلكيش اسمي!"

قال محمود باستغراب، التفت له سارة في هدوء شديد، وعاد ليكمل:

"أنتي هناك، قولتي لي محمود هات إيدك!"

بحيرة شديدة من محمود قابلتها ابتسامة هادئة من سارة.

"اسمك كان مكتوب على الميدالية الجلد اللي في العربية، اللي متعلقة على المراية، محمود، وأكيد دا اسمك يا إما اسم حد غالي عليك".

عاد للواقع قليلًا وسط تبدد ذلك التعجب.

"آه، اسمي أنا، محمود".

"ما أنا عارفة"، قالت سارة، وأكملت:

"لما نديت عليك مديت إيدك من غير ما تعدل على الاسم، فأكيد دا اسمك".

عاد ليسأل:

"وأنا ماسألتكيش عن اسمك؟ انتي اسمك إيه؟"

صمت قليلًا وقبل أن تجيب عاد ليسأل:

"انتي مين؟!"

ولكن بنبرة تود معرفة مكنون الشيء، وليس خارجه، ابتسمت مجددًا كما لو أنها أرادت تبديد شعوره مجددًا:

"قلت لك، اسمي سارة".

ثم طال الحديث قليلًا بينهما.

- 2 -

وقف كلٌ من محمود وسارة أعلى السلالم مجددًا عند مدخل ذلك الشاطئ، يربط كلٌ منهما رباط حذائه استعدادًا للعودة مرة أخرى إلى الكورنيش، بدأ في السير في اتجاه العودة ناحية السيارة التي نسيا أنها معطلة، ولكن هذا الاتجاه أفضل من حيث الوجهة كما ظنا.

"ها ساكت ليه؟"، قالت سارة وهي ترفع عينيها لتنظر إلى محمود مجددًا.

"مش عارف، بس زي ما قلت لِك حاسس إن كل الحاجات اللي فاتت مجرد حاجات هايفة شوية ممكن أواجه أي حد، زينب أو ماما أكلمهم من غير..."

صمت محمود وكأنه كان على وشك نطق كلمة صعب عليه البوح بها، ولكن أكملت سارة وهي تضرب بإحساسه عرض الحائط بقصد أو بدون قصد:

"خوف، الخوف يا محمود".

توقف محمود قليلًا وكأنه يتذكر ما حدث على الشاطئ وكيف استطاع أن يتحدى واحدًا من أكبر مخاوفه، فعادت سارة لتكمل الحديث وهي تشير إلى محمود بأن يكمل السير:

"لما قلت لك إن جواك غضب كتير كان لازم ساعتها تتحداه وتواجهه، أو تتكلم عشان تخرج اللي جواك، لكن إزاي تتحرك لأي حاجة من دول وأنت خايف؟"

صمتت قليلًا وكأنها تتنظر رد منه، ولكن عادت لتكمل بعدما أدركت مدى تعقد التفكير داخل رأس محمود:

"لازم تقتل خوفك، وأحسن طريقة تقتل بيها خوفك إنك تواجه أكبر مخاوفك، ساعتها هيكون عندك استعداد تواجه أي حاجة تانيه".

نظر محمود إليها في حيرة كبيرة، كيف استطاعت تلخيص أعوامه الأخيرة ببعض الكلمات، وجدت العلاج النهائي لكل تلك السنوات العجاف، ولكن نظر لها مجددًا وهو يسألها:

"هو أنا لو سألتك إنتي مين؟ هتقولي عليا مجنون؟"

نظرت سارة قليلًا إليه قبل أن تعود وتطلق ضحكة عالية، غير مهتمة إذا خرج أحدهم من نافذة بالجهة الأخرى وبدأ في ذم عديمي المسؤولية هؤلاء، حتى إن محمود لم يجد مفر من أن يشاركها تلك الضحكات،

وبعد أن تماسكت قليلًا، شهقت عميقًا، استطاعت كتمان ضحكتها وتحركت وهي تعدو في المكان، وبلهجة مرحة قالت:

"جاهز؟"

عاد محمود مجددًا ليشاركها ما تقوم به، وأخذ يجري في المحل.

"لإية يا فندم؟"

"تقتل غضبك؟"

"أفندم؟!"

"المعمورة الشاطئ هي المكان اللي جي"، قالت سارة.

"قرية شاطئ المعمورة" ذلك المكان الساحر مقصد الكثيرين، يعرفه كل أهل الإسكندرية والعديد من رواد هذا المكان، فيتجاوز داخلهم حدود القرية أو الماديات، يعشقون نسيم هوائه صيفًا أو شتاءً.

تعود التساؤلات داخل رأس محمود مجددًا، من تلك الفتاة؟ كيف استطاعت أن تلهو بنظم الكون جميعها؟ توقف الوقت؟ تعبث بأنفاس الشتاء؟ تضاهي جمال قطراته بهاءً؟ فتملأ التساؤلات عقلك، فتزيحها محاولًا تصديق أن من أمامك إحدى الفتيات بعمر الثالثة والعشرين ليس أكثر.

أكمل محمود بلهجة مرحة قليلًا وهو يسألها:

"هنروح أزاي؟"

وكأنه فقد القدرة على معارضتها، ينصاع فقط لما تأمر أو تخبر به.

"لازم العربية تشتغل"، قالت سارة.

نظر محمود متعجبًا مدركًا أن الوقت قد حان لمعاودة الركض في الجهة الأخرى، قد حان الوقت ليكون هو البادئ بتحريك عقارب الساعة هذه المرة، أو على أقل تقدير رسم خطواته بمفرده.

"إذا كان كدا، يبقى نشوف مين اللي هيسبق".

ولم يكمل الكلمة حتى انطلق مسرعًا مادًا يده إلى يد سارة ليسحبها حتى تركض هي الأخرى بجواره، وكأنه يقول لها لن تسبقيني هذه المرة.

دائمًا ما يحرمنا الخوف من العديد من الأشياء الجميلة التي نظن أنها بعيدة المنال، ولكن يبدو أن محمود استطاع أن يهزم سارة في الركض تاركًا لها المرتبة الثانية التي وقع بها في المرة الأولى بسبب خوفه، وصلا إلى السيارة مجددًا، لم يجدا مفرًا من إعادة تشغيلها هذه المرة.

"لو عايزين نشغلها لازم تتزق"، قال محمود.

"على فكرة مابعرفش أسوق فأكيد هزق أنا، وأنت سوق".

"طيب حاولى تزقى وأنا هدور".

"على إيه؟"

"هو إيه اللي على إيه! هدور دي يعني هشغل العربية، هدور الماتور"، -عارف أنها قلشه قديمه اوي بس الموقف حكم- قال محمود كاتمًا ضحكة بصوتٍ عالٍ داخله.

"عارفة على فكرة، بهزر معاك"، قالت سارة في خجل.

فنظر محمود لها مبتسمًا.

"طب يلا".

اتجها نحو السيارة واستعد كل واحد ليأخذ مكانه، ركب محمود السيارة نظر من النافذة قائلًا:

"جاهزة يا حاجة؟"، ضاحكًا.

"جاهزة"، قالت سارة في حماس شديد.

"هعد لتلاتة وتبدئي تزقي".

"ماشي".

استجمعت سارة بعض القوة وبدأت في دفع السيارة، كان خلو الطريق تقريبًا، بالإضافة لصغر حجم السيارة قليلًا، قد ساعدا سارة على الأمر، وبدأت المحاولات العديدة، مرة ثم أخرى ثم أخرى، فتنظر سارة لمحمود قائلة:

"ها؟!"

"مرة كمان، هتدور المرة دي"، ويرد هو في ضيق، وتتكرر المحاولات، تعود سارة وتنظر له مجددًا سائلة:

"إيديا تعبت على فكرة، هتشتغل ولا لأ؟"

"أن شاء الله، هتشتغل المرة دي؟"

"تمام ".

وتعود المحاولات لتتوالى مجددًا وسط إصرار محمود وسارة وعدم يأسهما، وتشبث محمود بما هو مخبأ في وجهتهما المقبلة، وكأنه ما زال متمسكًا بطوق النجاة ذاك، ولعل ما أخبرونا به قديمًا عن مدى الرغبة في الشيء، تحقق لك ما تسعى إليه، فإحدى المحاولات تحولت إلى ناجحة، وعاد محرك السيارة ليعمل من جديد، فأسرعت سارة إلى السيارة بعد أن كنت قد ابتعدت قليلًا، بعد أن غمرتها السعادة بما صنعته، وأخذت تتحدث إلي محمود وهي تكرر:

"شوفت القوة، أنا شغلتها، أنا شغلتها"، عدة مرات بقليل من المرح.

أغلقا الأبواب، وتولى محمود الأمور شيئًا فشيئًا، وانطلقا إلى "المعمورة الشاطئ".

الفصل الثالث

الغضب

"كلما تملك الغضب في قلبك أكثر على ما عانيته في الماضي، كلما فقدت الفرصة في إحتمال حصولك على حب جديد في المستقبل".

باربرا دي أنغيليس

- 1 -

استمرا في الطريق حتى وصلا إلى "قرية المعمورة" حيث أرادت سارة، كانت الساعة تشير إلى العاشرة، أظهر محمود هويات الدخول الخاصة بة عند البوابة وتقدما بعض الشوارع حتى أشارت سارة له بالوقوف.

"بس هنا"، قالت سارة.

"متأكدة؟"

"تعالى بس".

نزلا من السيارة، لم يحكم محمود إغلقاها هذه المرة، وكأنه اطمأن نسبيًا لخلو الشارع من الناس، تقدما قليلًا إلى أن وصلا إلى بيت خاص، أدرك محمود أنه الوجهة التي تقصدها سارة، نظر لها وكأنه ينتظر ما ستخبره وكأنها هي وحدها من لها الحق في اختيار الوجهة، نظرت له مبتسمة وبدأت في الحديث بعين تلمع وكأنها تخبئ بعض الذكريات داخلها، ذكريات تحاول جاهدة أن تخفيها، ولكن كان محمود قد أدركها مسبقًا:

"شوف، ماتستغربش، هتدخل الفيلا دي من الشباك الكبير اللي في الجنب".

وسط حديثها تبددت ملامح محمود تمامًا، وظهرت ملامح أقرب للبلاهة قليلًا، ولكن لم تأبه لذلك التعجب والانزعاج ولم تتوقف.

"هتدخل منه، وهتسمع صوت بيبي بيعيط، حاول توصل للأوضة، هتلاقيها أول أوضة في وشك من على إيدك اليمين، ماتعملش دوشة وحاول تتصرف...".

سمع محمود كل تلك الكلمات وعلى الرغم من كل الاضطرابات التي بداخله يعود لينطق بكلمتين تكادا تصيباها بالجنون:

"بتكلميني أنا؟!"

ولكن تعود سارة بجدية كبيرة ضاربة بسؤاله عرض الحائط مجددًا:

"أكيد، بكلمك بجد، وحاول تتصرف بحكمة"

استمر محمود في النظر إليها ولكن مع نظرتها الجادة التي تكاد تظهر للمرة الأولى، أدرك أنه في مأزق، فإما أن يدخل إلى أحد البيوت وينفذ ما طلبته أو يرفض هديتها له بعد كل ما قدمته له، وسط تذكره لكلماتها "تقتل غضبك".

عاد لينظر إلى ذلك البيت وينظر لها مجددًا وهو في نزاع شديد، ولكن استسلم أمام جديتها في النهاية واستعد لكي يدخل إلى ذلك البيت.

تحرك في حذر شديد، وصل إلى زاوية البيت حيث وجد النافذة المقصودة عندها، نظر ورائه ورأى سارة ما زالت واقفة في نفس المكان، توجه إلى النافذة وحرك أحد الألواح بها فوجده مفتوح، دخل منها إلى البيت في توتر شديد حيث تعالت دقات قلبه وسط قلق بالغ، ولكن لن يتملكه الخوف مجددًا وخاصة بعد أن تغلب علي أكبر مخاوفة للتو، وضعت قدماه أولى خطوتهما داخل البيت ليسمع بالفعل ذلك البكاء الذي شابه بكاء طفل رضيع، نظر مباشرةً إلى مصدر الصوت، هو بالفعل ذلك الباب الذي أخبرته به، والذي وجده مفتوحًا قليلًا، وفي حذر شديد وتلفت تحرك ناحية الباب، ومد يده وهو لا يشغله سوى إذا كان أحد أفراد المنزل ما زال مستيقظًا فيقضي بعض الأيام القادمة داخل أحد أقسام الشرطة، وبرفق شديد فتحه قليلًا حتى استطاع الدخول لينظر حوله وسط وضوح الصوت تمامًا، وهو يسأل نفسه: "كيف عرفت كل ذلك؟"

الغرفة كانت لأطفال، تستطيع إدراك ذلك من خلال أساسها وقطعها التي اتضحت في ذلك الضوء الهادئ، ربما ذكرت محمود قليلًا بطفولته وما كان يلمسه من خلالها من اطمئنان وسط تلك الليالي المخيفة –أو كما يعتقدها هو– تفقد باقي الغرفة، بها سريران، أحدهما صغير لطفل رضيع كان هو صاحب البكاء، والآخر لطفلة أكبر قليلًا يبدو من خلال غطائها إنها تكبر الرضيع ببضعة أعوام.

عاد ليهتم بصاحب البكاء غير المنقطع، وتعود التساؤلات لتضرب رأسه: "كيف عرفت به؟ لماذا لا يساعده أحدهم؟ أين أمه؟"، والعديد من الأسئلة، ولكن سؤال واحد كان هو دافع حركاته التي تتالت، ماذا يجب أن يفعل؟ أو لماذا أرسلته سارة؟

نظر إلى الغرفة مرة أخرى ولم يجد منها سوى ذلك البكاء الذي يجب أن يجد له حلًا، وكونه اعتاد الانزعاج من رؤية الأطفال تبكي فلا بد أن يتصرف بحكمة كما أخبرته، تحرك بحذر شديد ناحية السرير الأول حيث الطفل الرضيع واقترب منه في تأمل شديد وبضع همسات ومناداة منخفضة الصوت استطاع الرضيع أن يلاحظ وجود شخص يلهو بجواره، وعلى سجية أغلب الأطفال اطمأن الرضيع قليلًا لوجود من يسمعه صوته، ولكن سرعان ما عاد للبكاء من جديد، ولكن بنبرة أخفض من سابقتها.

صاحب محمود آنذاك شعور غريب بالنسبة له، فوسط محاولاته الجاهدة في التخفيف عن الصغير كان يفكر في الخروج لتوجيه الشكر لتلك الفتاه خارجًا، تمنى ألا تفكر في الرحيل المفاجئ وتركه هنا وحيدًا، نظر إلى الطفل مجددًا حتى كادت تنفد منه محاولاته، حتي فاجأه تحرك في السرير الآخر الذي اضطرب له قليلًا خوفًا من فزع ذاك الطفل وصراخه، وفضح وجودة في المنزل، ولكن تحرك الغطاء مبتعدًا ليكشف عن ابتسامة صافية هادئة جميلة، صاحبتها طفلة تكاد تبلغ أربع سنوات، تفاجأ محمود بشدة، فهي لم تخف أو تصرخ، بل قابلته بضحكة في جمالها تضاهي الشروق.

"مش هيسكت كدا".

قالت الطفلة في رقة شديدة بلسان وكأنه استجمع الكلمات من شتات تعجب محمود، ولكن أدرك أنه لا يوجد وقت كي يضيعه.

"أعمل إيه عشان مايعيطش؟"

قال محمود برقة قصد بها استعطاف الطفلة.

"هتلاقي الببرونه بتاعته هناك، هتيدها له، وبعد كدا شيلة شوية لغاية لما ينام ورجعه السرير تاني"، مشيرة لأحد الأرفف.

كانت لوقع كلماتها بهجة شديدة في نفس محمود، فكانت رنات صوتها تضاهي في جمالها تغريد الكروان، وأيضًا استخدامها كلتا يديها للتعبير عما تقول كان مشهد رقيق للغاية.

تحرك محمود على مهل إلى أن التقط القطعة المطاطية ومدها إلى فم الطفل وهو ينظر إلى الفتاة التي لم تغادرها الابتسامة، وهي ما زالت جالسة في سريرها، ثم عاد ليمد يده مجددًا ليحاول التقاط الطفل فضمه له في رفق شديد وسط عدم تصديق أن يده تحمل ذلك الملاك الصغير، فقد تذكر مع تلك اللحظة أخته فرح عندما كانت رضيعة، ضم الطفل الرضيع له فتعلق بكتفه وتحرك محمود قليلًا يمينًا ويسارًا محاولًا اللهو مع الصغير، ناظرًا للطفلة الصغيرة التي رأى بعينيها مدى الامتنان لما يصنعه.

ربما توقف الوقت قليلًا أو ربما شعر أنه هو فقط من يتحكم بالوقت، بين يديه ملاك وينظر إلى آخر، يعود ليهز يديه قليلًا عندما يتذكر ضرورة تهدئة الصغير النائم بين يديه وظل الوقت يمر.

تقدمت الدقائق قليلًا إلى أن استسلم الصغير إلى النوم فشعر محمود بذلك، فتقدم مجددًا نحو السرير وأعاد الطفل حيثما كان برفق شديد وحرص بالغ حتى لا يستيقظ مجددًا، حتى يتسنى له العودة لسارة.

وضع الصغير في مكانه ولكن هذه المرة مطمئنًا ثم نظر إلى الصغيرة التي ما زالت تراقب تصرفاته مكتفية بالابتسامة لا أكثر، فابتسم لها وكأنه يقصد أن يقول وداعًا، فسبقته الصغيرة بالحديث:

"أنت كمان أخويا، صح؟"

نظر لها متعجبًا وسط عدم توقعه لجمال تلك الكلمات، ومفاجأة الصغيرة له وسط اختلاط الخواطر داخله بصورة مفاجئة، ولكن بنبرة هادئة وسط تحركه نحو سريرها قال:

"أيوة، أكيد، أنا كمان عندي أخت جميلة زيك كدا".

وما أن أكمل الجملة حتى انطلقت الصغيرة نحوه محتضنة إياه معلقةً يديها حول عنقه في تحرك خطف قلب محمود خارجًا فأثلجه وأعاد له الهدوء الذي ظل يبحث عنه طوال الأيام السابقة.

مد محمود هو الآخر يده مربتًا على كتفها في رفق.

"شطورة، إنتي شطورة".

عادت الصغيرة لمكان جلوسها مجددًا حيث الفراش، فقال لها محمود في رفق شديد:

"يلا بقى عشان تنامي".

"حاضر".

قالت الصغيرة وهي تعود لفراشها وهو يساعدها في إعادة الغطاء كما كان ويودعها بقبلة على رأسها، ثم شرع في الاستعداد للخروج مجددًا بعد أن أتم المهمة التي تبدو في ظاهرها عودة الهدوء لذلك الطفل الرضيع، ولكن في سرها عودة الهدوء والراحة لقلب محمود، عودة صفاء قلبه وشعوره بارتياح شديد كان يظن إنه قد فارقه بلا عودة، خرج وتوجه إلى المكان حيث ترك سارة، حتى إنه من رهبة الموقف الحالي تخيل لو أنها ستختفي فتخوف من عدم إيجادها، ولكن كانت تقف حيث تركها وكأنها لم تحرك ساكنًا، عاد لها بشعور غير الذي رحل به، يود أن يتقدم لها بكل معاني الشكر، أو سؤالها كيف عرفتِ كل ذلك؟ فتوالت خطواته حتى اقترب منها مجددًا، نظر إلى عينيها مباشرةً ثم فرد كفي يديه ناظرًا لهما غير مصدق لما يحدث منذ أن قابلها.

"إنتي مين؟"

ابتسمت قليلًا وبصيغة أكثر جدية من قبل:

"الوقت أتأخر ولازم أمشي".

مجددًا تضرب بأسئلة محمود عرض الحائط، فوجد محمود إنها محقة وأنها طرحت أمر غلب بأهميته ما يدور بداخله من تساؤلات، على الرغم كونه واحد من تلك التساؤلات حيث تأخر الوقت وكون إنها فتاة ويجب أن يساعدها في الوصول لمقصدها، اتجاها مجددًا إلى السيارة وركبا كلاهما، وتحركت السيارة عائدة أدراجها.

تلك اللحظات الغريبة أوالسعيدة للغاية وربما الحزينة أيضًا، قد تأخذ منك بقدر ما تعطيك، تدفعك لأن تقوم بأشياء على غير ما تعودت، تدفعك لكي تنحت في الصخر -كما يقولون– حتى ترى هدفك ينير، فقد كانت اللحظة الفائتة بالنسبة لمحمود واحدة من تلك اللحظات، لا يعرف إذا ما كان حزين أم سعيد أو غير ذلك.

وسط تكالبه على القيادة كعادته بحذر شديد لم يشغله ذلك عن مراقبة تلك الجنية التي بددته بالكامل، بددته وأعادته وكررت ذلك كلما رغبت، مراقبًا لها وسط صمتها التام، وسط انشغالها بمتابعة تلك الأمواج من جديد، وربما تلك السفن البعيدة مجددًا.

اعتلت بعض التساؤلات رأس محمود ويعود واقعه ليزيحها قليلًا، إلا أنه شعر بضرورة طرق باب للحديث مجددًا:

"هتنزلي فين؟"، سأل محمود.

وكما هو متوقع كعادتها منذ أن تقابلا، كانت إجابتها غير اعتيادية، ابتسمت قليلًا قائلة:

"هقول لك لما نوصل".

قد تكون تلك اللحظة هي الأبعد عن ظن محمود بها أنها لصة بعد كل ما رآه، وعلى الرغم من ردها الغريب، ظن إنه من سيبدأ بالرد مجددًا حسب ترتيب حديثهما، ولكن بدت عليها نظرة شرود وسبقته هذه المرة:

"هي دي الحياة، بنوصل لنقطة بنفتكر إننا عملنا كل حاجة نفسنا فيها، اتعلمنا، فرحنا، كل الحاجات الصعبة عدت، مثلًا الشتا خلص والشمس هتطلع من جديد، الفجر خلاص هينور والليل هيخلص، لكن بترجع وتصعبها علينا وتثبت لنا إن لسه مفيش حاجة خلصت".

تعجب محمود من إيقاع ورنين تلك الكلمات، فشعر إن تلك اللحظة هي الأمثل ليطلب منها توضيح أكثر لما أخبرته به عند تلك الصخرة، ولكن عادت كلماتها لكي تقاطع تفكيره:

"وبعد كل دا بنتحول لناس بتراقب المراكب من بعيد، ناس تبص للسما وتسرح، ناس بيسمعوا أغاني أكتر ما بيسمعوا التانين، وكل اللي بنتمناه ساعتها إننا نعيش زي باقي الناس".

أسرع محمود في الرد هذه المرة قبل أن تسبقه مجددًا:

"أنا مش عايز أعيش زيهم، أوقات كتير إحساسي بيقتلني من كتر ما بحس بالذنب، والحرب جوايا تكبر أكتر وأكتر، بس كل دا مافرقش معايا طول ما أنا عارف إني صح".

"بالظبط، ويا ريت كان ينفع تبقى زيهم، وحتى لو حاولت، باردوا مش هتعرف"، ردت سارة.

سمع محمود خلال تلك الكلمات الفائتة حزن بالغ قد يكون فاق حزنه مسبقًا، ولكنه لم يخرج بعد، لم تُصرح سارة به حتى الآن، عاد بقليل من اللطف هذه المرة:

"احكي لي، هسمعك زي ما سمعتيني".

"كل شيء بدأ هنا، وانتهى هنا!"

تعجب محمود، فيبدو أنه لم يفهم شيئًا.

"هنا فين؟!"

ردت سريعًا وكأنها أدركت شيئًا:

"هنا، هنزل هنا!"

نظر لها محمود مستغربًا ولم يفهم مجددًا، ولكن نظرت له مبتسمة مشفقة عليه وما أصابته به وبلطف شديد قالت:

"ممكن أنزل هنا؟!"

رفع محمود عينيه عنها ناظرًا حوله مدركًا أنه وصل إلى **سان ستيفانو** حيث يقبع هذه المبنى الضخم للغاية، المبهج والمبهر لكل زائريه، نظر لها مجددًا وأخذ يبطئ من سرعة السيارة تمهيدًا لكي يوقف السيارة ولكن قاطعته سارة:

"ممكن على الناحية التانية؟ في ملف قدام وهنزل الناحية التانية".

عاد ليسرع قليلًا حتى دار بالسيارة إلى الجهة الأخرى، وبعد خطوات قليلة من الفندق أوقف السيارة سائلًا:

"هنا؟"

نظرت سارة وكأنها تتذكر مشهد سابق ثم قالت:

"أيوة، بالظبط هنا"، ردت سارة بعينين تتلألآن بالدموع وعادت لتكمل:

"الوقت عدى بسرعة واحنا راجعين! وصلنا بسرعة".

"ماكنتش ماشي بسرعة بس الطريق فاضي، والسكة ما أخدتش غير دقايق"، قال محمود.

ابتسمت سارة وبلطف شديد تحركت وفتحت باب السيارة ونزلت منها، تعجب محمود لتصرفها وهي لم تقل وداعًا حتى.

نزل مسرعًا واقفًا بجوار الباب مراقبًا لها وهي تعود إلى الرصيف، أغلق بابه ومشي بضع خطوات مقتربًا منها.

"بيتك قريب من هنا؟"، سأل محمود ولكن لم يجد رد.

"طيب نازلة في الفندق؟"

ولكن كان الصمت مخيم عليها في البداية، واتجهت بنظرها ناحية الطريق وفجأة قالت:

"عارف، من أول ما بنوعى على الدنيا وبنبقى قدام خياريين في كل حاجة، يا إما تقف مكانك يا إما تأخذ خطوة لقدام، بس لو كملت هتتحمل نتيجة اختيارك".

نظر لها محمود بدون أن يحرك ساكنًا ظنًا منه أنها ستبدأ بالحكي أكثر عن قصتها.

"عارف بقي أكتر حاجة بحب اعملها؟"، سألت وهي مستمرة بالنظر إلى الأمام.

"إيه؟"

"أعدي الشارع!"

"كلنا بنعدي الشارع!"، رد محمود.

ضحكت سارة قليلًا مما دفعه هو أيضًا للابتسام، ثم نظرت له مجددًا وعاودت النظر إلى الطريق.

"بس أنا بحب أعدي الشارع وأنا مغمضة عينيا!"

مجنونة؟! قد يكون هذا هو التفسير الأقرب إلى رأس محمود الآن، ولكن لم يجد ما يقول أو ما يرد به، ولكن هي كانت على دراية بما ستفعل.

وبدون أي مقدمات تهيأت لقطع الطريق، أغمضت عينيها وحركت قدمها لأمام في تصرف أفزع محمود، مما دفعه لكي يهرول بخطوتين في اتجاهها ويمسك بيدها لكي يوقفها.

تفاجأت سارة به وبردة فعله، نظرت إلى يدها المُمسكة وارتقت بنظرها إليه وكأنها تخبره بشيء أو تطلب منه تفسيرًا.

تعود وتسأل نفسك مجددًا ربما كانت العيون كفيلة بإخبارنا بكل شيء.

"ماتعديش كدا أكيد!"

"ليه؟!"

صمت قليلًا قبل أن يرد بلغة واثقة:

"هتتخبطي، العربيات والطريق!"

ضحكت سارة قليلًا، ثم قالت:

"مش سبب مقنع"، وعادت لتشرع في العبور مرة أخرى.

عاد محمود ليمسك يدها بشدة وكأنه يدفعها عن الطريق، عادت تسأل مجددًا:

"ليه؟"

صمت قليلًا ووسط تفكير مضطرب جدًا، وسط نزاع تام بين خوفه من إن تعبر فتتعرض للأذى وبين تفكيره في إيجاد رد مناسب، فانفلت لسانه بكلمات تشعر كما لو أنه لم يقصدها:

"عشان حبيتك".

كلمات ربما دفعت بطبيعته المخلصة إلى النقطة الأدنى لها في حياته، أين زينب مما يقول؟ هل ينطبق عليه الآن لقب خائن؟

كلمات ربما دفعت يده لإطلاق يد سارة التي اكتفت بابتسامة خفيفة، ثم عادت لتضرب بكل ما قال عرض الحائط.

أغلقت عينيها مجددًا، مالت بجسدها نحو الطريق وبدأت بالسير.

الفصل الرابع

الحب

"لا يوجد وهم يبدو كأنه حقيقة

مثل الحب".

مصطفي محمود

- 1 -

عادت خطواتها تدق مجددًا في إيقاع واحد مع دقات قلب محمود الذي اكتفى بالوقوف بلا حراك غير مصدق لما أخبر به منذ قليل، توالت خطوات سارة وسط مرور بعض السيارات بجوارها، صاحب ذلك ارتفاع ضجيج سائقيها محذرين تلك الحمقاء التي تعبر الطريق بلا أدنى حذر.

خطوة،

وراء أخرى،

وراء أخرى،

تتحرك وهي تسير بثقة شديدة، وكأنها لم تعد تأبه بالحياة أو كأنها لم تعد تخاف الموت، وتوالت الخطوات حتى وصلت بها أخيرًا إلى منتصف الطريق حيث الرصيف الأصغر.

توقفت وعادت لفتح عينيها مجددًا، معاودة النظر إلى محمود الذي علا صراخه في الثواني الماضية واضطرب أكثر من مرة كلما رأى سيارة تقترب نحوها وشعر بأنه قد بلغ الجنة بمجرد رؤيته لقدميها وهي تلمس الرصيف في المنتصف.

"يا مجنونة!"

صرخ بصوتٍ عالٍ لكي يطوي المسافة بينهما.

"عدي يلا، عدي زي ما أنا عديت، غمض عينيك".

"أكيد لأ!"، قال محمود.

صمتت سارة قليلًا ثم فاجأته:

"لو فعلًا بتحبني عدي وأنت مغمض عينيك".

حاول محمود ابتلاع ريقه ولكن بلا فائدة، فقد كان امتعاض حلقه دليل كبير داخله على مدى ارتباكه، فقد حاول للحظات أن يُكذب أذنيه لما سمعت، أو بمعنى آخر لما أطلقت شفتاه، ولكن كلمات سارة قد أكدت ما حاول إخفائه لقد أخبرها بالفعل إنه يحبها.

"إيه، سرحت في أية؟"، قالت سارة.

كلمات ربما أوضحت له أنه استغرق في التفكير أكثر من اللازم دون أن يوجه لسارة رد، نظر إلى يمين الطريق حيث اتجاه السيارات القادمة وعاد لينظر لها وهو يردد في عقله: **"أنتي مين؟"**، وعاد ليسأل نفسه مجددًا ألم تكل من هذا السؤال.

"طيب".

قال بصوتٍ عالٍ محدثًا سارة، في علامة منه أنه سيمتثل لما قالت.

أنزل قدمه اليمنى إلى الطريق، اعتدل في وقفته وتهيأ، نظر مجددًا إلى يمين الطريق ملاحظًا أن الفرصة قد سنحت الآن، فإذا عبر سريعًا قبل قدوم سيارة مسرعة يمكن أن ينجو بحياته، فالطريق أصبح فارغ نسبيًا حاليًا، نظر إلى سارة مجددًا وكأنه أدرك أنها وجهته وليس الرصيف في المنتصف، أغمض عينيه وأخذ يخطو أولي خطواته.

وسط إغماضك لكلتا عينيك تكون حاسة السمع أقوى بكثير، وستكون أكثر قدرة على سماع الأصوات المنخفضة والبعيدة، وهذا ما حدث تمامًا لمحمود، وما زاد عن ذلك كله، تلك اللحظة المربكة التي يمر بها محمود، فيكاد أن يجزم أنه يسمع معها أبواق السيارات بوضوح على الرغم من بعدها أو وجودها على الجانب الآخر، وعلى الرغم من قصر المسافة بينه وبين سارة أو عدم كبرها شعر كأنه يسير لمدة عام، مما صنع له تأكيدًا لما أحب سماعه من نظريات تفترض أن الوقت نسبي، فإذا مررت بما يمر به محمود ستشعر أنه يمر عليك عام في كل خطوة تخطوها، أما إذا وضعت في فمك قطعة حلوى ستمضي قبل أن تشعر بوجودها.

وسط تتابع الخطوات وعلو دقات قلبه وارتفاع نسبة الأدرينالين التي يضخها جسده تزداد مخاوفه ويكبر شعور القلق داخله، تمنى لو يختلس النظر ليتأكد أنه بأمان، أراد أن يقلد ذلك الطالب الذي ينجح كل عام لأنه يجيد النظر إلى جانبه –بدون أن يشعر المراقب بالتأكيد– ولكنه يصر مع كل خطوة على إبقاء عينيه مغلقتين على الرغم من علمه أن كل خطوة تدفع به بعيدًا عن زينب التي أحس أنها تقف خلفه حيث بدأ خطواته.

"يلا قربت توصل"، قالت سارة.

على الرغم من كون كلماتها مطمئنة بعض الشيء، ولكن لم يكن هناك فرصة لذلك، فقد انطلق بعد كلماتها مباشرةً بوق عالٍ قتل معه ما بقي من شجاعته، مما جعله يرتبك بشدة ويشعر أنه على وشك أن يموت أو على الأقل أن يصدم بشدة.

شعر أن هناك سيارة قادمة نحوه بسرعة شديدة، في وسط هذا التوتر المريب تلفت إلى يمينه مسرعًا ولكن كان قد فتح كلتا عينيه لعله يستطيع أن يستخدم بعض مسائل الفيزياء لحساب سرعة السيارة وسرعته الشخصية والمسافة لكي يستطيع الفرار من الموت.

فتح كلتا عينيه، ولكن لا شيء، لا شيء إطلاقًا، لم يكن هناك أي سيارة قادمة، بل كانت في الأصل على الجهة الأخرى، ولكن كان قد فتح عينيه أي أنه نقض اتفاقه مع سارة.

عاد في بطء شديد ينظر إلى الأمام حيث تقف سارة التي اكتفت بمجرد ابتسامة، بعد أن أكتشف أنه لا يوجد إلا خطوات قليلة بينهما، كالتي كانت بينهما في البداية هو الآن من سيقطعها، ولكن شعر بمدى ثقل تلك الخطوات كما لو أنه جيش منهزم عائد من الحرب ولكنه قطعها.

"شوفت"، قالت سارة.

نظر محمود مباشرة إليها دون استطاعته أن يرد بكلمة واحدة، لعله كان سعيدًا قليلًا أنها كَذبت ما قال، هل اطمأن الآن قليلًا أنه لا يخون زينب؟ ولكن لماذا قالها؟

تقدم محمود حيث وقف بجوار سارة مباشرةً وكل منهما ينظر إلى البحر مباشرة، كان ما يدور في رأس محمود وقتها أن الحديث سيدور مجددًا وتحكي له قليلًا بطريقة الفلاسفة خاصتها، ولكن استمرت سارة كعادتها في إحداث المفاجآت بكلمات بسيطة أنهت كل الخطوات التي ساراها معًا:

"محمود، الخوف، الغضب، الحب".

رددت سارة وهي تبتسم وكأنها تخبر محمود أن يهون عن نفسه قليلًا، ولكن بدا عليه عدم الفهم، رغم أن تلك الكلمات قد سمعها منها مسبقًا عندما كانا عند الصخرة عند الشاطئ.

"يعني إيه؟!"، سأل محمود.

"يعني وصلنا للنهاية، زي أكتر الحاجات اللي ليها نهاية"، قالت سارة.

كان محمود يوشك أن يسألها مجددًا ولكن خطوات سارة للأمام قاطعت كل أفكاره مجددًا، دفعته خطوات سارة للتعجب.

خطوة،

الأخرى،

تحركت نحو الطريق أكثر وأكثر،

بوق سيارة مسرعة بشدة،

صوت اصطدام قوي،

اصطدمت سيارة مسرعة جدًا بسارة،

فتحرك جسدها للأمام قليلًا كما لو أنها ريشة في الهواء،

ثم عادت لتصطدم بالطريق –الأسفلت- بصورة قاسية جدًا.

خطوات سارة وتوقف الزمن ودقات قلبه ومرور السيارة فجأة، كل تلك الأشياء التي أحاطت بمحمود فجأة كانت كفيلة بأن تصعقه بشدة، تصنع منه حجر وقف وتسمر بلا حراك، عجز عن التفكير، ذهب المنطق بعيدًا جدًا جدًا جدًا، حدثت الأشياء بسرعة شديدة، ربما إن الأمر كله منذ أن التقى بها كان سريع النسق، الزمن بدا كأنه سريع جدًا، كل ما يدور حوله يعدو، وهو لا يستطيع المجاراة بل لا يستطيع الحركة.

مرت السيارة بعد أن ارتطمت بسارة، أصبحت سارة ملقاة في منتصف الطريق، ومحمود ينظر لها، ويتذكر كل ما صنعت له في الساعات القليلة الفائتة، إلى أن سلم بضرورة التصديق بما يحدث وإدارك أنها تعرضت بالفعل للصدم وأنها تحتاج للمساعدة كما ساعدته، فتحرك محمود مسرعًا نحوها أو بمعنى أوضح إلى جسدها الممدد على الطريق بلا حراك، وهو يسأل هل ماتت؟ هل ستتحرك؟ أم سترد عليه حينما يحدثها، تحرك محمود بكل ما فرضته اللحظات الفائتة، دقات قلبه العالية، وعدم تمالكه لأعصابه، الصدمة التي مر بها وكل شيء.

بلهفه شديدة وخوف تام وصل محمود لسارة أمال كتفها ناحيته حاول أن يناديها ولكن لا رد، لا شيء إطلاقًا، لم يستطع تمالك نفسه فاندفعت الدموع من عينيه خوفًا، وحاول أن يستنجد بأحد ولكن لم يكن هناك أحد من المارة مطلقًا، فوجد أن الحل الوحيد أمامه هو حملها والعودة بها إلى السيارة والذهاب بها إلى أقرب مشفى، وبالفعل لم يضيع الكثير من الوقت وبدأ بحملها وتحرك ناحية السيارة.

العالم تقلص من حوله وتنازعت داخله العديد من الخواطر والأفكار، لا يستطيع تصديق ما يحدث، لا يستطيع مطلقًا التحكم في أعصابه، فما أن وصل بها إلى منتصف الطريق مجددًا حتى تعثر في الرصيف ولم يستطع

التحكم في الأمر، وعادت سارة لتسقط ولكن هذه المرة من يده، وعاد جسدها ليلتقي الطريق بقوة مجددًا ولكن بمقدار أقل من سابقه.

سقطت من يد محمود الذي بدوره شعر أن روحه قد أُخرجت منه عندما سقطت سارة من يده، هل هكذا يساعدها؟ هل تستحق هذا بعد كل ما فعلته من أجله؟ كيف لم يستطع أن يكون أكثر حذرًا، تعود الأسئلة ويعود الدافع مجددًا ويتحرك من جديد.

عاد مرة أخرى بدون يأس وسط مقاومته لدموعه أن تفيض مرة أخرى، ولكن كان الأمر أكثر صعوبة هذه المرة وحملها مرة أخرى، وبدأ من جديد في التحرك ناحية سيارته.

ولكن فجأة نور سيارة أخرى يقترب،

السيارة كانت مسرعة، في الحارة ذاتها التي يسير بها حاملًا سارة،
الآن لا يوجد مفر، سيتعرضا للصدم، نظر محمود لسارة التي يحملها بين يديه، سارة التي رأى في عينيها كون بأكمله،
سارة التي قدمت له هدايا قيمة في الساعات الماضية،
سارة التي تعرضت للصدم منذ قليل،
سارة التي تبدو الآن نائمة كالأطفال بين يديه لا تستحق أن تتعرض للصدم مجددًا، حتى وإن كانت قد أسقطها من يده ولكن كان بغير قصد، وعندما ستحين الفرصة لن يعرضها للخطر مجددًا أو أن يختار لها الضرر الأقل، فنظر مجددًا ناحية السيارة التي تبعد أمتار قليلة للغاية والتي على وشك الاصطدام بهما، حتى أدرك أن هناك حل واحد لا غيره، فاستجمع محمود كل ما تبقى من قوى لذراعيه وألقى بسارة ناحية الرصيف، تمنى لو كان هناك حل أكثر رفق ولكن لا مفر، ألقى بها بعيدًا عن الحارة التي تسير بها السيارة وعاد للسقوط مجددًا بعد أن اختل جسده بعد أن استخدم كل قوته،
عاد لينظر إلى نور السيارة مجددًا،
الذي أخذ يعلو بشدة،
صوت البوق العالي للغاية،
أغمض عينيه كأنه يحلم،
فرد ذراعيه،
ابتسم،
وعاد ليردد:

"الخوف، الغضب، الحب". بعد أن فهم أخيرًا قصدها

ثم أمال رأسه قليلًا،

نظر مجددًا إلى سارة حيث دفع بها،

ولكن لا أحد، لم تكن موجودة مطلقًا، وقبل أن تتسع حدقتاه ويشتت عقله،

لم يشعر سوى بقوة الاصطدام،

اندفاعه في الهواء قليلًا،

اصطدامه بالأرض،

عيناه تحركت لمكان سارة الفارغ،

وساد الظلام،

وساد الصمت.

- 2 -

مضت خمسة أيام، يقف كل من علي صديق محمود وزينب بجوار والدة محمود، فقد اعتادت مسبقًا على سماع اسمهما من محمود، تراقب زينب عن كثب متعجبة فقد شاطرتها الحزن والبكاء، فمن تلك الفتاة وما درجة قربها من محمود لكي تبكي مثلما تبكي من حملته، عجبًا لذلك الشيء المسمى بالحب الذي لم تنل منه والدة محمود قدرًا كافيًا، فلم تتزوج رجل سبق لها معرفته أصلًا، وحتى وفاته لم تكن سعيدة، ولكن تمضي الحياة –لأن بينا عيال– كما يقولون، ولم تشعر بالقليل إلا بعد وفاة زوجها، شعرت بالفعل أن هناك ما يسمى حب بينهما حتى وإن لم تشعر به مسبقًا، حتى إذا كان أبوها هو من وافق على زواجها كما كان الحال آنذاك.

-طبعًا إذا أخبرتك أن ثلاثتهم يقفون أمام قبر محمود الآن ستلعنني وستلعن الرواية يا صديقي، ولكن لا ليس بعد، لقد تعاطفت مثلك مع محمود-.

وقف ثلاثتهم مباشرة أمام ذلك الزجاج الذي يفصل غرفة العناية المركزة عن المتلهفين أو بمعنى أوضح الذين تتضيق بهم الدنيا خوفًا وفزعًا على أحبابهم بالداخل.

تمر الساعات يأتي زائرون جدد، أقارب، أصدقاء، ولكن يبقى ثلاثتهم دائمين، استأذنت زينب والدها ولم يتردد في الموافقة، سيأتي والدها في وقت لاحق ليرافقها إلى البيت كما اعتاد في الخمسة أيام الماضية، أما على فقد رمى بكل مشاغله وراء ظهره ويقف مباشرةً يدعو لصديقه ألا يفارق دنياه ويتركه وحيدًا كما يتخيل هو.

يقف أحدهم مرة ويجلس الآخر مرة، تقرأ والدة محمود القرآن، وهكذا مضت الأيام الخمسة بعد يوم العمليات العصيب، فقد تعرض محمود إلى عدد ليس بقليل من العمليات تجاوز الخمسة، فقد انتشرت الكسور في جسده، ذراعه وقدمه وضلوعه، بالإضافة إلى ارتجاج المخ –ستسألني كل هذا ومتعاطف معه؟!– لكن كان القدر رحيمًا لكي يخرج الطبيب ويردد كعادتهم بالأفلام والروايات:

"عملنا اللي علينا والباقي على ربنا".

يقف على مباشرةً أمام الزجاج بعد أن جلست الأخرتين بعد أن أنهكهما التعب، يقف وهو يردد داخله:

"يلا بقي قوم، أوعى تسيبني يا محمود".

ينظر له مباشرة، تمنى لو تحرك حركة بسيطة ليخبره أي شيء، يشفق عليه أحيانًا بعد أن التفت الجبائر حول قدمه وذراعه، تخيل أنه يحرك رأسه ببطء شديد، عاد لإغماض عينيه قليلًا وكأنه يدعو، ثم عاود النظر إلى صديقه الذي كان بالفعل يحرك رأسه ولم تكن مجرد خيالات.

"بيتحرك!"، انطلق صوت علي عاليًا وكأنه أحرز هدف في نهائيات بطولة ما، بل أشد فرحًا.

"محمود فاق، بيتحرك، يا دكتور!!"، استمر صراخًا وفرحًا.

قفز كل من والدة محمود وزينب عاليًا إلى الزجاج ليتأكدا، ثم صرختا عاليًا بعد أن رأتاه يتحرك فعلًا.

"محمود، حد ينادي الدكتور".

صدقني تلك اللحظات تكون غير موصوفة بكلمات -لا أراك الله عزيزي القارئ مكروه في صديق أو حبيب- وعلى كل حال كان الأمر يستدعي أن تسجد والدة محمود شكرًا لله، ثم تنهض مجددًا لتحتضن زينب وعلي على التوالي، جاء الدكتور مسرعًا ومعه أحد الممرضات، فتحت الغرفة دخلوا هم الخمسة في لهفة شديدة، توجه الدكتور لمحمود، أبعدت الممرضة الآخرين قليلًا، نظر الدكتور إلى محمود الذي شرع بخلع قناع التنفس باليد اليسرى حيث أن اليمنى قد تعرضت للكسر أو كما شعر هو بصعوبة تحريكها، ساعده الطبيب وفي حزم شديد:

"حمد لله على السلامة يا بطل"، قال الدكتور.

نظر محمود حوله بعد أن فتح عينيه، نظر إلى الطبيب ثم في الغرفة والتفت حيث تقف والدته وزينب وعلي، فرح بوجودهم قليلًا ولكن عاد لينظر حوله مجددًا وفي صوت خافت:

"هي فين؟"

في الوهلة الأولى ظنت والدة محمود أنه لم يرها، وتقاسم تفكيران داخل زينب أحدهما أنه يسأل عن والدته، والآخر أنه تذكر أنهما قد تعاركا في الهاتف ويريد أن يتصالح معها.

"ماما هنا ما تخفش وكمان صحابك موجودين"، قال الدكتور ليطمئن محمود الذي عاد ليسأل:

"سارة فين؟"

نظر الدكتور إلى زينب مباشرةً في محاولة سؤالها إذا ما كانت هي سارة تلك.

"لا مش أنا"، قالت زينب بصوت خافت في ارتباك شديد،

تقاسمت مشاعر زينب آنذاك ما بين الحزن والخوف على محمود لم تترك أحدهما ينتصر داخلها، لا أنه عندما أفاق سأل عن فتاة أخرى، فمن هي وما درجة قرابتها به، ولا رغبتها الشديدة أن ينهض مباشرة وتطمئن أنه بخير.

"سارة، خبطتها العربية، هي فين؟"

ردد مجددًا ولكن بدا منزعجًا هذه المرة.

"أنت اللي اتخبط يا محمود، بس أنت كويس دلوقتي يا بابا"، قالت والدته في لهفة.
"محدش كان موجود معاك"، قال الدكتور.

"سارة خبطتها عربية قبلى".

ردد محمود بصوتٍ عالٍ هذه المرة، وعاد مجددًا ليكرر سؤاله الذي لم يكن له جواب عند أحد الحاضرين، ولكن ظل يكرر السؤال مرارًا وتكرارًا حتى تمنى أحدهم أنه يمتلك إجابة، خاصة بعدما بدأ صوت محمود يعلو شيئًا فشيئًا وتحول الأمر إلى ما يشبه ثورة، هنا أدرك الدكتور أن عليه التدخل، أشار للممرضة محركًا شفتيه بدون ترديد الكلمة:

"حقنة مهدئ".

كان الأمر بالنسبة للباقيين يحمل اضطراب شديد، والدته فرغ قلبها في الأيام الماضية بما فيه الكفاية فماذا يحدث الآن وهي ترى يد الطبيب تمتد لتجعل محمود يعود للسبات مجددًا، أما زينب فقد اشتعل الصراع داخلها أكثر وأكثر، وعلى الذي تمنى لو يستطع إيقاف ثورة محمود حتى يتمكن من إبعاد الطبيب عنه، أحضرت الممرضة الحقنة وهيأتها، أخذها الدكتور برفق رفع الكم الأيسر لمحمود وبلطف شديد قال:

"ماتخفش، كل حاجة هتبقى كويسة".

ثم أراح ذراعه إلى جانبه،

وفجأة ساد الهدوء من جديد، وظل يردد:

"سارة، فين سارة؟"

وساد الظلام من جديد.

- 3 -

ومر يوم عصيب، ولكن على أي حال فقد استيقظ محمود، بل يمكن أن نقول إنه لم يمت، بالفعل لم يمت، عموما اتفق كل من على وزينب على البحث عن سارة تلك، أو كما اسمها محمود، ووعدا والدته بذلك، وعلى هذا الحال مرت عشرة أيام أخرى، تتبادل والدة محمود وعلي المبيت للاطمئنان عليه، تظل زينب متواجدة طوال فترة النهار ويأتي والدها لكي يصطحب ابنته للبيت في نهاية كل يوم.

أفاق محمود في اليوم التالي، توالى حديثه مع الثلاثة بالتتابع فكان اليوم صعب بالنسبة له، حتى أدرك أن عليه تأجيل السؤال عن سارة مؤقتًا لما رأى من حزن في أعين الآخريين لما حدث له أو ربما أن يقتصر الحديث عنها مع عليّ، اطمأنت عليه والدته وتحدثت معه بصفة مستمرة طيلة الأيام الماضية، تحدثت معه زينب أيضًا مرة أو مرتين، اطمأنت عليه فقط دون ذكر أي شيء عن خلافهما أو عن تلك الفتاة سارة، أما عليّ الذي لازم غرفته كثيرًا وتحدث معه كثيرًا وشاهدا مباراة السوبر سويًا، تطرق الحديث بينهما كثيرًا عن سارة التي ظلت عالقة برأس محمود فوعده علي بالبحث في الأمر بجهد، وقد تحمس كثيرًا عندما حكى له محمود ما حدث في ذلك اليوم على الرغم من أنه شعر في البداية أنها اضطرابات الحادث فدار الحديث في يوم على هذا النحو:

"يعني قبل ما تخبطك العربية ما لقتهاش؟"، سأل عليّ.

"أيوة والله العظيم، بقول لك شيلتها ورميتها لما لقيت العربية قريب".

"طيب، أنت حكيت الموضوع لأمك أو لزينب؟"

"لا طبعًا، دول قالوا عليا مجنون بمجرد ما قلت في واحدة خبطتها عربية معايا".

"عمومًا هدور في تقرير المستشفى والأقسام وهبلغك على طول أول ما اعرف حاجة".

"أنت بتهزر يا عليّ، حالًا خليتها أقسام، أنت أخرك تدور تحت مرتبة سريرك، بلاش جو الأفلام دا"، قال محمود بلهجة أقرب للمرح.

"خلاص يا عم، تصدق أنا غلطان إني عايز أساعدك"، قال عليّ ضاحكًا.

ثم تحرك ناحية الباب وعاد ليتوقف كأنه تذكر شيئًا، فالتفت إلى محمود وردد إليه كلماته كما تعود في الأيام الماضية:

"الله يخرب بيتك، كنت هتموت وتسيبني لوحدي".

فيضحك محمود بعد أن اعتاد عليها في كل مرة.

وبعد يومين أو أكثر عاد عليّ مجددًا ولكن خالي الوفاض بالكامل.

"صباح الخير يا صديق"، قال عليّ وهو يحتضن محمود في رفق شديد.

"صباح الخير يا فقري"، رد محمود.

زفر عليّ في ضيق يدل قليلًا على يأسه وقال:

"بص، أنا دورت على قد ما أقدر لكن مفيش أي خيط، حتى الراجل اللي خبطك كلمته، كانت نمرته مع أمك، بس بردو قال إن ما كنش في غيرك على الطريق كله، والناس اللي جم ساعدوه أكيد لو كان في حد تاني أكيد ماكانوش هيسيبوه، والراجل بنفسه هو اللي وصلك المستشفى".

"طيب، هنعمل إيه؟"، رد محمود في يأس مشابه.

"لكن في حاجة"، قال علي في تعجب حيث تذكر شيء.

"إيه؟ في إيه؟"، رد محمود.

"الراجل قال قبل كدا في المحضر، إنك كنت بتحاول توصل للرصيف لكن كنت بتقع".

نظر محمود له بدون ترديد أي شيء، حيث تبادلا النظرات وكأنهما في معركة شطرنج، ظل الحال بهما حتى قفز عليّ وكأنه رأى سارة أمامه -حتى لو أنه لم يرها مسبقًا- ولكن يمكنه أن يتخيل شكلها كما وصف محمود.

"صح، دورت على اسمها على النت؟"، قال علي في حماس شديد.

"لأ".

"أنت بتقول اسمها سارة أسامة سعد".

قال على وهو يخرج هاتفه من جيبه، ظل محمود يراقب تحركاته فأخرج الهاتف وكتب في محرك البحث الاسم باللغتين العربية والإنجليزية وبدأ البحث، تقاسم كلاهما النظر في الشاشة الصغيرة وكانت النتائج مبشرة

جدًا لكلاهما فقد أشار الفيس بوك إلى أكثر من حساب يحمل هذا الاسم، فقرر على تكرار المحاولة عن طريق الفيس بوك هذه المرة، وكان أيضًا هناك العديد من الأسماء الحاملة لهذا الاسم ولكن هذه المرة قد تساعدهما الصورة الشخصية لكل اسم، وبدأ محمود في المراقبة، وبدأ علي في البحث، وأخذ يحرك الشاشة إلى أسفل،

الأسفل،

الأسفل،

كاد أن يصيبهما اليأس،

وفجأة،

صرخ محمود عاليًا:

"أهي، أيوة هي دي يا عليّ".

"واحدة واحدة طيب".

قال عليّ وهو يحرك إصبعه للضغط على ذلك اللغز الكبير، وفتح الحساب الذي يحمل اسمها وصورتها، كانت ترتدي ذات الملابس كما رآها محمود تمامًا، تبتسم قليلًا وكان وراءها البحر مباشرة، نظر علي إلى محمود وكأنه يقول له إنه يصدقه الآن وبدأ بالتصفح لعله يجد بعض المعلومات الإضافية ولكن صاحبة الحساب لم تقم بإضافة أي جديد سواء صورة أو مقال أو ما شابه لفترة طويلة، وكانت الصفحة تمتلئ بتعليقات الآخرين، دعاء للميت، آيات قرآنية وغيرها.

شرع في النزول أكثر وأكثر حتى توقف عند منشور كتب فيه:

"جماعة ادعو لسارة، اتوفت إمبارح في حادثه

عند سان ستيفانوا، ربنا يرحمها، هتوحشينا يا سارة".

كان اليوم تمامًا هو اليوم التالي لحادث محمود، نظر محمود إلى عليّ الذي استمر في النظر إلى الشاشة بعين تملؤها الدموع:

"مش قلت لك، مش قلت لك إنها كانت معايا، وخبطتها العربية".

ولكن لم يرد عليّ وظهر على وجهه شحوب قاتل، نظر إلى محمود وردد في تعجب شديد وعدم إدراك:

"النهارده 22\ 12، 22 \ 12\ 2016"، قال عليّ.

نظر إليه محمود متعجبًا فهو لم يفهم ما يقصد، مد إليه عليّ الهاتف وهو يقول له:

"شوفت التاريخ، تاريخ السنة".

مد محمود يده في حذر لالتقاط الهاتف ونظر إلى الشاشة، وتطلع إلى التاريخ الذي يشير له المنشور، حيث وجده بتاريخ السابع من شهر ديسمبر، ولكن لسنة ألفين واثني عشر، أي منذ ثلاث سنوات.

"ماتت من 3 سنين؟! 2013!"

ردد محمود بدهشة شديدة، ولكن كيف؟ هل كان هناك؟ أم كيف أتت؟! هل قابلها بالفعل؟! هل كانت رحلة عبر الزمن؟! وعادت الأسئلة وكأنها لا تضرب رأس محمود إلا كلما ذكر اسم سارة، ولكن هذه المرة هاجمت رأس صديقه عليّ أيضًا.

لم يطل الحديث بينهما وقتها، لم يجد على ما يقول فحيا صديقه وانصرف، وترك محمود غارقًا في دوامة التساؤلات تلك، حتى أدرك إنه وحيدًا، فأسند ظهره طالبًا بعض الراحة وأغمض عينيه وتذكر حديث سارة وصورتها المبهجة في ذلك اليوم حتى خلد إلى النوم.

الفصل الأخير

سارة

"الخوف قاتل، الغضب خائن

الحب طفلٌ صغيرٌ لن يكبر أبدًا".

فارس أشرف عصفور

- 1 -

ومر يومان، مجددًا خيم الصمت تمامًا على وجه محمود، لربما شعرت والدته بالأمر، ولكن رفضت أن تسأله حتى لا تشعره بالضيق، كان قليل الكلام، قليل الأكل أيضًا، تخوفت والدته ولكن لم يكن بيدها ما يمكن أن تفعله، أما صديقه عليّ فكان يعتصر ألمًا لما أصاب صاحبه، فلم يكن الحادث فقط كل ما يشغل تفكير علي، بل إن ذلك اللغز الذي فُرض في حياة صديقه بدا أنه لم يخلق له حلًا علي الإطلاق، تقاسم علي هو الآخر الوقت بين بقائه في غرفته غارقًا في التفكير والبحث في الإنترنت عن حالة مشابهة أو تفسير، وبين زيارة محمود في المستشفى على الرغم من قلة الحديث بينهما بعد ذلك اليوم.

أما بنسبة لزينب فجرت الأمور على غير ما هو متوقع، فبينما كان محمود في غرفته طُرق الباب،

"أدخل"، قال محمود.

دخلت زينب في هدوء شديد وابتسمت قليلًا وقالت:

"إزيك النهارده؟ عامل إيه؟"

"الحمد لله، أحسن بكثير"، في قليل من الحيرة.

ولكن زينب كانت تستطيع أن تعرفه جيدًا، فمن خلال نبرة صوته استطاعت أن تعرف أنه ليس بخير، فأرادت التطرق إلى لون جديد من الحديث حتى تعود وتسأله بعدها عما يؤرق باله:

"قلت لي إمبارح في التليفون عايز أشوفك، خير حصل حاجة؟"، قالت مبتسمة.

"كنت عايز أقول لك إني بحبك"، قال محمود مفاجأً زينب بدون أي مقدمات، حين كانت على وشك الجلوس على حافة سرير محمود كما تعودا، ولكن تسمرت مكانها وصمتت واكتفت بالنظر إلى محمود الذي تابع الحديث:

"بحبك ومش هقدر أعيش من غيرك، أنا واثق من دا دلوقتي، اتقسمت أنا وانتي أيامنا وحزننا وفرحنا وكل حاجة، وعمري ما كنت أقدر أعدي كل اللي فات دا من غيرك، ومش هكمل اللي جي إلا بيكي، عارفة دايمًا كنت بسأل نفسي كتير بحبك ولا لأ..."

قاطعته زينب محاولة إيقاف ذلك التيار:

"أنت تعبان دلوقتي و... و..."، قالت في ارتباك شديد بعد أن اعتلت وجنتيها الحمرة، ولكن أكمل محمود بلا تردد:

"ساعات بسأل نفسي بحبك ليه؟ عشان إنتي مثلًا ساعدتيني في كذا حاجة لكن لأ مش كل دا، بصراحة مالقتش سبب صريح أقول أنا بحبك عشانه، بس بحبك، ومش عايزك تزعلي مني، عشان خاطري".

بعد ذلك التيار الجارف، رأت زينب أن الصمت سيكون أفضل، كما تعتقد هي على الأقل، فقد اعتادت ذلك كلما غازلها محمود أو سمعت منه كلام بدا في طابعه الغزل، كانت تلتزم الصمت لا تستطيع الرد، تعتصر خجلًا ولعل هذه المرة تحديدًا تفاجأت، اندفاع محمود جعلها ترتبك.

لم ينتظر محمود منها ردًا فقد اعتاد صمتها، اعتاد أن يصبح كالصياد الماهر يمتاز بالصبر، حينما يخبرها أنه يحبها، يعشقها، أي من تلك الكلمات كان لا بد في كل مرة أن ينتظر وينتظر حتى تنطق هي الأخرى بمثيلتها وتخبره -بفتح الباء- "بحبَك".

ظل كل منهما صامتًا، حيث دارت في الأجواء تفاصيل دقيقة حملت معها التفكير في أشياء عديدة، تتساءل زينب من أين أتى محمود بكل تلك الكلمات؟ وماذا حدث لكي يتغير بهذا الشكل؟ -لا تخبرها يا صديقي فليبق أمر سارة سرًا- وربما تود لو تسأله: **"مين سارة دي؟"** -هل أنت من أفشيت السر عزيزي القارئ؟ - وهو في قرارة نفسه لم ينس للحظة إنه قال "بحبِك" -بكسر الباء- لفتاة غير زينب، بل انه لم يعرفها سوى خلال ساعات معدودة، لعله تذكر إنه ظل منتظرًا طوال أشهر عدة حتى أخبر زينب أنه يحبها، هل المرة الأولى أصعب من مثيلتها، وسيَسهُل علينا تكرارها بعد مرتها الأولى.

كان على أحدهما البدء من جديد واستقطاب أطراف الحديث مجددًا، فأضف إلى ذلك صعوبة الموقف منذ قليل، خاصة إنه لم يحدث مسبقًا أن اجتمعا في مكان ما بمفردهما إطلاقًا، على كل حال تشجعت زينب قليلًا حتى وإن قررت الرد بغير ما أراد محمود:

"أنا كنت جاية عشان أقول لك إني سألت الدكتور وقال لي إنك هتخرج قريب إن شاء الله".

صمتت قليلًا وأكملت:

"أنت بقيت كويس، حمد لله على السلامة"، بنبرة امتلأت بالثقة.

رأى محمود ابتسامتها ورأى من خلالها أيضًا إنه أصبح بخير، وإنه حان الوقت كي يعود ذلك الكيوبيد ويعلن أن ذلك الحب كتب له أن يدوم، ولكن عاد محمود بقليل من المكر وكأنه أراد أن يثير انفعالها شيئًا فشيئًا:

"آه عرفت، في ممرضة أول ما عرفت جت وقالت لي، بلغتني إمبارح الساعة 12 بالليل كمان"، –يا للرجال–.

على الجانب الآخر تبددت تلك الابتسامة وظهرت علامات أقرب إلى النية للشروع في القتل على وجه زينب، ظهر استياء شديد ولكن في ذات الوقت مصاحبًا لحب شديد وبعض الاندفاع قالت:

"ممرضة؟! الساعة 12! بتعمل إيه إن شاء الله".

إنها الغيرة يا صديقي، هل جربت لدغتها مسبقًا، ابتسم محمود ناهيًا هذا المسلسل القصير:

"بهزر، بهزر، عرفت من عليّ من شوية".

هدأت زينب قليلًا وكأنها أرادت سماع تلك الجملة، وعلى الرغم من علمها أن محمود كثيرًا ما كان يثير غريزة الغيرة بداخلها ولكن اندفاعها دائمًا كان يجعل منها تلك الوردة التي تتمايل مع النسيم، عادت وبقليل من المزاح قالت:

"غلس".

"ما أنا عمال من الصبح أقول لك بحبك، يعني واحد قام من الموت وعربية دغدغته خالص وساب كل دا وقال لك بحبك، وإنتي عاملة فيها تقيلة"، قال محمود ضاحكًا.

"غلس بردو"، قالت زينب مخرجةً لسانها وكأنها طفل صغير تعمد إغاظة زميله.

"ماشي يا تقيلة"، رد محمود مقلدًا حركتها.

ابتسمت زينب في خجل محاولةً أن تتوارى عن عيني محمود، كأنه أصبح ذلك البحار الذي يبحث عن لؤلؤته ولكن في ذات الوقت لا تريد للحظة أن تفارق عينيه لعلها تستطيع ملامسة يدي ذلك البحار الشجاع فتخرج إلى النور، فما الجدوى من بقائها في الأعماق والظلام وحيدة.

"أنا همشي بقي"، قالت زينب وهي تتأهب للرحيل.

"ماشي، خلي بالك من نفسك".

قال محمود وود لو قال لها أن تبقى قليلًا، نظرت له زينب طويلًا، محدثةً عينيه بدون كلام، حديث حمل الكثير من الحب، مشت إلى الباب، عادت والتفت ورائها ناظرةً له مجددًا وقالت في خجل شديد:

"محمود".

"أفندم؟"

لعله عرف ما ستقول، ضحكت قليلًا وبرقة بالغة قالت:

"وأنا كمان بحبك، حمد لله على السلامة".

تنفس محمود الصعداء مبتسمًا إنه استطاع التصبر حتى سمع الرد:

"وأنا بموت فيكي، الله يسلمك".

- 2 -

هناك العديد من الأسئلة التي لا نجد لها حلول، يعتقد البعض منا أن لكل سؤال جواب، لكن تجبرنا الحياة في أحيان كثيرة على الاعتراف بالعكس، فلعل الحب أحدها ولعل ما حدث لمحمود في تلك التجربة كان أحد الأسئلة التي لم يَعثر على إجابة لها، صدقني كان في حال لا يحسد عليه، كثيرًا ما كان يستغرق في التفكير، كثيرًا ما يدق بابه الصمت، يتذكر كل شيء، يمر الجيد من الأيام الماضية أمام عينيه فيبتسم قليلًا، فيعود السيء منها ليعكر صفوه، فتغادر مركب أحلامه وذكرياته إلى الجانب المظلم، لو كنت مكانه ستحتاج إلى لمسة رقيقه من يد تنقذك أيًا كانت تلك اليد، وبالنسبة لمحمود فيمكن أن نقول إن وجود كل من علي وزينب ووالدته حوله كان مثاليًا في تلك اللحظة الصعبة، فلم تكن يد واحدة ولكن ثلاثة، صديق وحبيبة وأم تمثل الدنيا بأكملها.

تناوب ثلاثتهم على زيارته وإيناس وحدته، حتى حينما بدأ المشي وسمح له الطبيب مغادرة السرير الذي لازمه لفترة طويلة كان كل منهم لا يمل ولا يكل بالمرة، إلى أن مر شهر ونصف بالتمام والكمال، فاليوم هو يوم العودة إنه الأربعاء –كم أحب هذا اليوم– سيغادر محمود أخيرًا ذلك المشفى، أو بمعنى آخر سيعود للحياة من جديد بعد أن كان على مشارف مغادراتها، ولكنه سيتذكر كل كلمة لسارة كل موقف مر بينهما في ذلك اليوم، سيتذكر جيدًا الثلاث كلمات تلك: **"الخوف، الغضب، الحب"**.

خرج محمود من المشفى وقد عرف أنه يستطيع أن يتغلب على مخاوفه، يغادر وقد أدرك كيف يمكن للغضب أن يفسد طعم حياته، يضع أولى قدميه خارج المستشفى وهو ينظر إلى هذا العالم الكبير، ولكنه يعلم أن هناك فتاة واحدة لن يكتمل ذلك العالم من غيرها، بالتأكيد عرف أنها زينب، على كل حال خرج أربعتهم، استقلوا سيارة محمود بعد أن استطاع عليّ إحضارها، بعد أن تسلمها عن طريق بعض الأوراق التي وقعها محمود الأيام الماضية في المشفى، وما أن اقترب محمود من السيارة حتى ترائى له أنه يرى سارة بجوارها.

"مالك في إيه؟"، قال عليّ.

"لسه شايفها قدامي"، رد محمود.

"طيب، حاول تنسى مؤقتًا اللي حصل، بس عمومًا زي ما قلت لك خطوة أخيرة لازم تعملها، ممكن تفهمك حاجة من اللي حصل"، رد عليّ.

كما اعتقد محمود كان هناك شيء أخير وجب القيام به، شعر لبعض الوقت أنه دين في رقبته أو لعله في قرارة نفسه شعر أن ذلك الشيء يمكن أن يهديه إلى حل ذلك اللغز، ركب محمود ووالدته، قاد على السيارة وودعتهم زينب واتجهوا إلى المنزل.

العودة إلى الديار أو العودة إلى المنزل بعد رحلة طويلة دائمًا ما تكون لحظة مشوقة، لقد برع الغرب بتلك المسميات مثل **"home sick, home sweet home"** –هل شعرت بذلك من قبل– دخل محمود إلى المنزل، وإلى غرفته، تفقدها كما لو أنه أول مرة يدخلها، التفت إلى أمه واحتضنها وكأنه شعر أنه مدين لها بالكثير.

"معلش تعبتك معايا، ربنا يخليكي ليا".

"حمد لله على سلمتك يا حبيبي، ربنا ما يحرمني منك تاني"، قالت والدته.

ربما كانت تلك اللحظة هي الأقرب بينهما إلى نسيان كل ما حدث.

"هروح أحضر لكم حاجة تشربوها".

وانصرفت تاركةً بعض الخصوصية لعليّ ومحمود للحديث، اللذان ظلا بدورهما صامتين ينظران لبعضهما البعض وهما مبتسمان حتى بدأ محمود الحديث:

"أظن مش هينفع أقول لك أنت كمان، معلش تعبتك معايا".

"ليه أنت فاكرني أمك ولا إيه؟"، قال مازحًا.

"عمومًا ربنا يخليك ليا يا صاحبي".

"ويخليك ليا يا صاحبي"، رد عليّ.

في خلال الكثير من المواقف بينهما، والصدفة التي جمعت بين صداقتهما التي تعدت حاجز الخمس سنوات، وجد كلًا منهما إنه مدين للآخر، وشعر كل منهما أنه وجد الصديق الذي لن يتكرر بالنسبة له.

"دا العنوان، لما تنوي تروح كلمني"، قال عليّ وهو يمد ورقة لمحمود.

"حد قال لك عليا إني اتشليت، هروح لوحدي عادي".

"لوحدك إيه، انت لسه فاكك الجبس من يومين؟!"

"هبقى كويس، بس لازم أروح لوحدي، خليني على راحتي".

شعر عليّ من النبرة الجادة التي تبدو من خلال حديث محمود بضرورة الرضوخ لرغبته وضرورة الموافقة، وبعد ساعة أو أكثر انصرف عليّ، وحل الليل وتوجه محمود إلى الفراش للمرة الأولى منذ زمن طويل جدًا، مستمتعًا بذلك الشعور وما له من إحساس رائع بالدفء والاطمئنان، بقي مستيقظًا حتى ساعات متأخرة من الليل إلى أن غلبه النوم واستغرق في ثبات عميق.

كان كل شيء حوله ممهد لكي يعمل عقله الباطن بلا توقف، يخزن العديد من المشاهد وها قد أتى الوقت لكي يعيد سردها من جديد –نعم– عن طريق حلم رأى محمود نفسه يقف على إحدى تلك السفن التي طالما ظل يراقبها، وبالقرب منه قارب صغير يقبع وسط ذلك الظلام على متنه كل من عليّ وزينب! مقيدان بالحبال وينظرون له في خجل شديد بعيون مكسورة ذليلة، ويذهب القارب إلى الظلام أكثر وأكثر حتى يتلاشى، ثم ينطفئ نور السفينة التي يستقلها محمود شيئًا فشيئًا حتى يحل الظلام بالكامل ويختنق، استيقظ محمود في فزع شديد، تذكر قليلًا مما رأى ثم نظر إلى الساعة التي كانت تشير للتاسعة، حيث أدرك أنه قد حان الوقت للقيام بخطوة أخيرة، تمنى لو وجد معها إجابة للأمر بأكمله.

- 3 -

نزل محمود من سيارته توجه إلى العقار المشار إليه في الورقة التي أمدها له علي، تحدث مع حارث العقار قليلًا الذي بدوره أشار لمحمود لشقة في الدور الثالث، استقل محمود المصعد وهو يفكر كثيرًا كيف سيبدأ، توقف أمام الشقة المقصودة تمامًا، ضغط الجرس ولكن ما سمعه كان مفاجئ له قليلًا:

"سارة، افتحي الباب يا سارة".

أجاب صوت أقرب لامرأة في منتصف الأربعين من الجانب الآخر للباب، ولكنه دفع محمود للتعجب قليلًا:

"حاضر يا ماما"، أجاب أحدهم وهو يفتح باب الشقة، تراجع محمود قليلًا –إنه ذات الصوت– تأهب للمفاجأة.

"أيون، عايز مين؟"

"سارة!"، قال محمود في تعجب شديد.

"لا، أنا أختها".

"إنتي سارة؟"، كرر محاولًا إثبات شيء غير موجود.

"لا أنا أختها الأصغر منها، سارة اتوفت من 3 سنين، بس حضرتك عايز مين؟"

هنا ظهرت امرأة بدا أنها صاحبة الصوت في البداية.

"أيوة، مين حضرتك؟"

"أنا زميل سارة الله يرحمها في الكلية، ولما جت السنوية بتاعتها جيت أطمن عليكم".

قال محمود في ثقة محاولًا ألا يظهر الكذب.

"أكيد، أكيد".

رحبت به الأم وأشارت له بالدخول، دخل محمود في خجل وتوتر شديد –هل ستنجح تلك التمثيلية– ولكن ظل مراقبًا لتلك الفتاة التي تشبه سارة مع بعض الاختلاف كطول القامة ولون الشعر وطوله وبعض الأمور الأخرى.

"أتفضل أستريح، أنا مامة سارة".

"شكرًا، فرصة سعيدة".

"اعملي لنا حاجة نشربها يا سارة، تحب تشرب إيه؟ عندي عصير مانجو لسه فريش"، قالت الأم.

"تمام مفيش مشاكل"، قال محمود.

ثم انصرفت تلك الفتاة التي ظل محمود في حيرة من أمرها.

"اسمها سارة بردو؟!"، قال محمود في تردد.

"لأ دي بنوتي التانية مريم، من ساعة ما فرقتنا سارة وأنا بناديها باسمها"، شعر محمود ببعض الحرج.

"آسف".

"ولا يهمك، قلت لي إنك كنت زميل سارة الله يرحمها".

هنا شعر محمود وقع المفاجأة التي في السؤال.

"آه، كنا سوا في فريق الرسم اللي في الجامعة"، ربما سيكون ذلك أفضل.
"اممم... بصراحة ماشفتكش قبل كدا".

اعتصر محمود تفكيره حتى يكون جاهز بإجابة مقنعة:

"أنا شوفت حضرتك كذا مرة، في الجنازة والعزا وسلمت على حضرتك بس أكيد كنتي في حالة ماتخلكيش تبقي فاكرة حد، أنا مقدر اللي حصل".

قد تشعر ببعض الثقة في كلامه يبدو أنه قد أتقن تلك المسرحية، فهذا هو الكذب عمومًا يا صديقي، الكذبة الأولى والثانية تجد بهما بعض الصعوبة، أما الثالثة فربما يكون حديثك بها أصدق من الصادق، هنا شعرت الأم بقليل من الإحراج وبدأت بصيغة حديث أخرى تحمل بعض الود:

"فيك الخير يا بابا، وجودكم حوالينا بيحسسنا إن سارة لسه موجودة".

تردد في ذهن محمود **"سارة لسه موجودة حوالينا"**، كأنه تفسير لما حدث، دخلت مريم ووضعت أكواب العصير فوق الطاولة ومدت الأم العصير لمحمود ودار حديث طويل نسبيًا، حمل محمود لكي يتذكر كل ما حدث بالتفصيل، يرى في حديث الأم ووصفها لسارة تشابه تام، يتلصص النظر إلى مريم في بعض الأحيان ليتذكر بعض التفاصيل، تمنى لو أخبرهما قليلًا بما حدث في ذلك اليوم، ولكن فضل عدم الخوض في تلك التفاصيل، ولكن أخبرهما بما ظن أنه سيكون خيط للأمر:

"سارة كانت دايمًا فيلسوفة، كانت بتحب تساعدنا وتحل مشاكلنا لما بنسألها عن رأيها".

تحدث محمود في بهجة شديدة واستمعت الأم ومريم في سعادة بالغة كأنهما يتذكران حلم قديم:

"بالنسبة ليا كانت على طول بتكرر قدامي تلت كلمات عمري ما هنساهم، الخوف، الغضب، الحب".

ما أن استمعتا إلى تلك العبارات حتى ظهر على وجههما تأثر شديد، دفع دموع الأم إلى الميل عبر خدها وهي تنظر لمحمود وكأنها تذكرت شيئًا.

"ثواني، في حاجة لازم تشوفها".

قالت الأم وقد نهضت ودخلت إلى غرفة مجاورة، ظل محمود يراقبها، وأحيانًا أخرى ينظر إلى مريم، غابت الأم لبضع لحظات وعادت وهي تمد لمحمود مفكرة.

"دي أجندة لقيناها مع سارة ساعة لما اتوفت ماشوفنهاش قبل يوم الحادث".
تناولها محمود وهو ينزع ذلك الرباط المطاطي ويفتحها ليجد ثاني صفحاتها مكتوب بها الثلاث كلمات تلك:
"الخوف، الغضب، الحب"، كانت قد كتبت بطريقة غطت كلمات أخرى كتبت مسبقًا.
فزع محمود قليلًا وهو يراقب حديث الأم ويلاحظ أيضًا أن أولى ورقات الأجندة قد قُطعت مسبقًا متذكرًا معها شيئًا دار بينه وبين سارة يومها، وبعد عدة دقائق استأذن محمود بالانصراف واستأذان أيضًا أن تسمح له الأم بالاحتفاظ بتلك الأجندة الصغيرة، مع وعد منه بإرجاعها في أقرب وقت والمحافظة عليها أيضًا، ودع مريم وأمها، توقف أمام المصعد الذي وجده يشير إلى الدور الحادي عشر، فأشار لهما إنه سيستخدم الدرج أسرع إلى السيارة والتقط هاتفه.

"ألو، إيه يا محمود، أنت فين؟"، أجابت والدته من الجانب الآخر.

"جاي يا ماما، بقول لك بس يا حبيبتي، هدومي بتاعت الحادثة فين؟"

"وعايزهم ليه يا بابا دول ذكرى وحشة؟"

"ماتقلقيش أنا عايز منهم حاجة، الحاجات اللى كانت في الجيوب".

"بلاش تطلعهم، والحاجة اللي كانت في الجيوب كلها هتلاقيها في العلبة الكبيرة اللي في المكتبة".

"تمام، ماشي يا ماما".

"طمني عليك يا بابا، سلام".

توجه حيث أخبرته أمه، دخل الشقة، توجه للعلبة حيث أشارت له،
بحث فيها حتى عثر على ورقة كان يقصدها،
أخرج منها الورقة في تردد شديد، جلس إلى طاولة،
وضع أمامه الأجندة التي أعطتها له والدة سارة وفتحها،
فرد الورقة التي معه أو التي أعطتها له سارة حينما كانا يجلسان على الصخرة طالبةً منه ألا يفتحها وقتها حتى نساها،
قارنها بأولى ورقات الأجندة المقطُوعة ،
وجدهما تطابقتا تمامًا،
هنا تحديدًا شعر بأن الأمر كله تعقد أكثر وأكثر،
صدقني لقد بدا ما حدث مؤخرًا كالجرح الذي لا يلتئم، ما أن يشفى قليلًا حتى يحدث أمر جديد يزيد الأمور تعقيدًا.

ومرت ثلاثة أيام أخرى، جلس محمود صامتًا كثيرًا كعادته مؤخرًا، فكان شغله الشاغل هو محاولة الربط بين تلك الورقة وبين حديث والدة سارة أن تلك المفكرة كانت مع سارة يوم الحادث، يحاول الربط أيضًا بين ذلك اليوم ككل وبين ما حدث في قصة سارة والحادثة التي تعرضت لها ولكن لا جدوى.

على كل حال في اليوم الثالث توجه محمود إلى المكان الذي بدأ فيه كل شيء، المكان الذي تعود على الذهاب إليه كثيرًا.

هذه المرة انكسر الشتاء قليلًا، أشرقت الشمس، تواجد بعض الأشخاص في ذلك المكان مستمتعين بجمال الطبيعة حولهم، ربما فكر قليلًا أن يصطحب زينب إلى هنا في إحدى المرات.
وجد مكانه المعتاد خاليًا،
جلس فيه،
أمسك بالأجندة تلك،

نظر إليها،

وعاد لينظر إلى تلك السفن التي بداخل المياه التي تظهر قليلًا في النهار غير معتمدة على ذلك الضوء –هل فهمت الآن يا صديقي– وبدأ يردد:

"الخوف، الغضب، ..."

ولكن فاجأه صوت بدا إنه لفتاة أقرب للثالثة والعشرين من عمرها وبدون أي مقدمات:

"... الحب".

وقتها عاد كل شيء ليدور من جديد.

تمت

. . . .

مع خالص الشكر